1

عبد الناصر:
أم كلثوم دي بنت جدعة

obeikandl.com

obeikandi.com

غير معروف عن أم كلثوم تصديها لكتابة مقالات صحفية.. لكنها كتبت مقالا في أكتوبر عام ١٩٧١ م ، عبرت فيه أشياء كثيرة نحو جمال عبد الناصر، وخصت به مجلة ثقافية هامة هي مجلة الهلال، كان المقال بمناسبة مرور عام على رحيل عبد الناصر، واحتوى على تعبيرات مثل: «معلمى، أستاذى، تعلمت منه».. غير أنه يكشف عن أول مرة التقت فيها بعبد الناصر، تقول: «لا أزال أذكر أجمل الذكر.. المرة الأولى التي رأيت فيها جمال عبد الناصر ،كان ذلك في عام المأساة الكبرى في تاريخ الأمة العربية، مأساة فلسطين سنة ١٩٤٨.. حيث هبت مصر للذود عن الأرض السليبة، وذهب الجيش إلى هناك، وكان على أبواب النصر، لولا أن دبرت له الدول الكبرى المؤامرة التي انتهت بخدعة الهدنة الأولى، ثم الثانية، فانقلب النصر إلى هزيمة، وحوصر أبناؤنا في الفالوجة حصارًا قاسيًا مريرًا أبدوا خلاله ألوانا أسطورية من البطولات في الصمود في وجه العدو، كانت مثار إعجاب العالم».

تابعت أم كلثوم ككل المصريين أخبار ما يحدث في فلسطين، وخاصة حصار الفالوجا، وما فعلته الكتيبة المصرية فيه من بطولات بقيادة الضابط السيد طه الذي اشتهر باسم «الضبع الأسود».. تضيف أم كلثوم في مقالها بالهلال:

«كنت أتتبع أنباء إخوتي، وأبنائي أبطال الفالوجا يوم بيوم، وساعة بساعة، وقلبي معهم يخفق لهم في كل لحظة، ويضرع إلى الله أن يؤيدهم في صمودهم العظيم، إلى أن يردهم إلينا سالمين، واستجاب الله الدعاء، وعاد أبطال الفالوجا إلى القاهرة، وعلى رأسهم قائدهم البطل - المرحوم السيد طه - ودعوتهم جميعًا، جنودًا وضباطًا، إلى حفل شاي في بيتي، ووجهت الدعوة كذلك إلى وزير الحربية (حيدر باشا) في ذلك الحين الذى اتصل بى معتذرًا عن عدم استطاعته تلبية الدعوة، وأضاف أنه لا يرى ضرورة لدعوة الجنود والضباط أيضًا»

استغربت أم كلثوم منطق حيدر باشا ، وقالت له:

«لقد وجهت إليهم الدعوة، وانتهيت، وسأكون سعيدة بهذا اللقاء، فإذا شرفتنا بالحضور فأهلًا وسهلًا، وإذا لم تستطع فهذا شأنك».

وتضيف أم كلثوم:

جاء الأبطال إلى بيتي، واستقبلتهم بدموع المصرية الفخورة بأبناء مصر، وجلست بينهم، وأنا أشعر أنهم أسرتي.. صميم أسرتي.. إخوتي وأبنائي.

وأذكر يومئذ أنني أقمت لهم في حديقة البيت محطة إذاعة صغيرة، تذيع عليهم ما يطلبون من أغنياتي، وقدم لي «الضبع الأسود» ضباطًا وجنودًا واحدًا واحدًا.. وحدثني عن أصحاب هذه البطولات، وكان من بينهم الضابط الشاب جمال عبد الناصر، وشددت على يده، وأنا أصافحه، وأتأمل في عينيه من بريق الوطنية...وحدة العزم.. وعمق الإيمان، وكان هذا هو أول لقاء لي بالبطل قبل أن يلعب دوره التاريخي في حياة مصر بأربع سنوات.

قصة هذا اللقاء الذي أوردته أم كلثوم في مقالها... سبقته مقدمات أدت إليه، يرويها سعد الدين وهبه قائلاً:

كانت أم كلثوم مهتمة جدًا بحرب ١٩٤٨م، وتتابع أخبارها من الصحف التي تعودت على شرائها في هذه الفترة ساعة الفجر، وتسبب هذا - كما روت لي - في مرضها الأول.. وكان لمشاركة ابن أختها كضابط في الجيش في هذا الحرب سببا إضافيا لاهتمامها..وأثناء حصار الفالوجا، غلب اليأس الجنود والضباط نتيجة عدم استجابة المسئولين في مصر لأي مطلب من مطالبهم الخاصة بالقتال، فقرروا كتابة رسالة إلى أم كلثوم يطالبونها بتقديم أغنية «غلبت أصالح في روحي».. وكان عبد الناصر هو صاحب الاقتراح.. ولما تشكك الضباط في تلبيتها لهذا المطلب، رد عليهم: لا.. «هتغني أصلها بنت جدعة».

تلقى حيدر باشا مطلب الجنود والضباط المحاصرون بدهشة بالغة، ولعجزه

عن تلبية مطالبهم العسكرية، لم يكن أمامه سوى توصيل ما يطلبون إلى أم كلثوم. التف الضباط والجنود المحاصرون حول الراديو وضبطوا الموجة الإذاعية التي تبث حفلها الشهري المعتاد، وترقبوا ما إذا كانت الرسالة وصلتها أم لا ؟، وهل ستستجيب لمطلبهم أم لا؟، وكانت المفاجأة في أغنيه «غلبت أصالح»، بالإضافة إلى أغنية «أنا في انتظارك»..فرح المحاصرون، وشعروا في هذا الوقت أن في مصر من يستمع إليهم، ويحس بنبضهم ويلبي مطلبهم، ويخصهم بشئ ما.

بعد الخطاب، ثم اللقاء، مضى كل منهما إلى طريقه،عاد جمال عبد الناصر من الفالوجا إلى مصر بقناعة أن تحرير فلسطين يبدأ من تحرير القاهرة، وبحث في الأرض وهو في الظل عن بذور التغيير، فكان تنظيم الضباط الأحرار، ومضت أم كلثوم إلى فنها، ينتظرها الجمهور كعادته الخميس الأول من كل شهر، انتظارًا وصفه الشاعر كامل الشناوي: «أصبح لدينا تقويمًا جديدًا،اسمه تقويم السنة الغنائية، أو الشهر الغنائي يبدأ ليلة حفل أم كلثوم».

كان الغليان الشعبي ضد الأوضاع السائدة يقترب من نقطة الانفجار، وبلغ الكفر بالأحزاب الموجودة مبلغًا كبيرًا ، ويصف المؤرخ طارق البشري الفترة التي عانت فيها الحياة المصرية من إلغاء معاهدة ١٩٣٦م في يناير ١٩٥٢م: «لم تستطع التيارات السياسية الشعبية وتنظيماتها أن تتجمع سريعًا في شكل من أشكال الجبهات التي يمكنها تجميع الرأي العام السياسي وراء الأهداف المتفق عليها، ويوم حريق القاهرة نفسه كادت مصر أن تكون بغير سلطة، وانفلت زمام الأمور، ورغم ذلك لم تستطع التنظيمات القائمة مجتمعة أو متعددة أن تلتقط أيًا من أطراف السلطة الملقاة طريحة، وقد لوحظ في تلك السنوات الأخيرة، أن ما بين العناصر غير الحزبية من الوطنيين تيار يفتش عن «الرجل»، و«القائد» «الزعيم»، بل ينادي جهرًا بحثًا عن «الديكتاتور» ـ الذي تحتاجه مصر، وزاد هذه الاتجاه نموا بعد انكسار التنظيمات

الشعبية الذي أعقب الحريق، وحتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م».

وإذا كان الوضع السياسي علي هذا الحال ، فكيف كان وضع الأغنية ؟.

كانت الأغنية تعيش آنذاك محنتها، شأنها في ذلك شأن الوطن، وبدأت ذروة المحنة مع الحرب العالمية الثانية.

يقول الموسيقار محمود الشريف في مذكراته:

«ترددت قبل الحرب على بعض المسارح في «روض الفرج»، ومسرح علي الكسار، والتى تحولت بعدها كلها إلى كباريها للترفيه عن جنود الحلفاء، وتغير كل شئ... الأفاقون، والسماسرة والعربجية الذين يتعاملون مع جيوش الحلفاء، تحولوا إلى أثرياء حرب، وتحول الفن إلى سوق رخيص، وتحولت معه، جامعات السبارس إلى راقصات، ومطربات ومنولوجست، ولم يبق سوى عبد الوهاب، الذى لزم الصمت، وتوقف عن العمل إلا فيما ندر، صار الفن ملهاة للجنود في الكباريهات، واشتقت كل الأغنيات من صلب «أحبك يا جوني»، وانتقل أثرياء الحرب من باب اللوق والشعرية إلى الزمالك، وجاردن سيتي، لتصبح القاهرة كباريه كبيرًا».

يضيف الشريف: «تأكد لى سخف الأغاني التي كانت تردد اسم فاروق (الملك) بالحب، والإجلال والتكريم، بينما الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع القاهرة والإسكندرية، وتكشف لى أن الجماهير كانت في طريق، والقادة، والمغنين في طريق آخر بعيدًا عن الناس، وعما يعتمل في نفوسهم».

ويقول الموسيقار كمال الطويل:

شهدت مصر في الأربعينات من القرن العشرين مجموعة أصوات عظيمة.. عبد الغني السيد، كارم محمود، وغيرهما من الأصوات الجميلة..ورغم جمال هذه الأصوات، إلا أن أصحابها تأثروا بالمناخ الاجتماعي الذي أفرزته الحرب العالمية الثانية.. ففي زمن الحرب ينقلب الهرم، بحيث يصعد البعض فوق التل مثل تجار

بضاعة «القُرنص»، أو مخلفات الحرب.:. ومع الثراء المتولد من هذه التجارة، يحتاج الأثرياء الجدد إلى ما يناسبهم من الفن، كنمط أغاني «يا شبشب الهنا».. هذا النوع من الأغاني كان يحتاج إلى راقصة مع تقديمها لزوم الذوق الجديد.. هناك أسماء لم تنخرط في هذه الموجة، لكن تظل السمة العامة لهذا الجيل في هذه المرحلة هي التأثر بجو الملاهى الليلية.

يتداخل في هذه اللوحة السياسي بالفني، ويتحدد فيها موقع جمال عبد الناصر بتصديه لتأسيس تنظيم الضباط الأحرار، لكن السؤال، أين كانت أم كلثوم من هذه اللوحة؟

لا نستطيع القول أن أم كلثوم وسط هذه الأمواج أخذت بأغنيتها نهجًا ثوريًا مقاومًا بالمعني المباشر للثورية والمقاومة،لكنها وكما يقول محمد حسنين هيكل:

«كانت واحدة من مجمل الأسماء التى تحولت القاهرة بفضلها من أواخر القرن (١٩) إلى بداية النصف الثاني من القرن العشرين إلى عاصمة عربية من غير جهد سياسى، من عمل الشعراء، من جبران لغاية شوقي إلى مطران.. أي مرحلة النهضة.. أم كلثوم، وعبد الوهاب والكتاب: توفيق الحكيم، طه حسين، العقاد، وأضيف إليهم من الشام ومن لبنان ميخائيل نعمية، وبشارة الخوري».

ويقول كمال النجمى:

« انتقلت أم كلثوم من غناء «إيه أسمى الحب».. و«الأولة في الغرام والحب شبكوني» و«كل الأحبة اثنين»، و «أنا في انتظارك».. انتقلت من هذا الغناء العربي الشعبي على جماله وطلاوته وارتفاع مستواه إلى مرحلة القصائد الشوقية الباذخة».

لم تكن أم كلثوم ثورية بالمعنى الدارج للكلمة، ولا سياسية بنفس المعنى. لكن معرفة البيئة التي ولدت فيها، والمناخ الذي تربت فيه يلقي ضوءًا كاشفًا على اختيارها لمواقفها ومفسرًا لانتمائها، فهي ولدت لأسرة فقيرة في قرية طماي الزهايرة

بمحافظة الدقهلية، وهناك خلاف على تاريخ مولدها. ويذكر الشاعر أحمد عنتر مصطفى مدير متحف أم كلثوم، أنه خلال جمع المقتنيات الخاصة بالمتحف كانت لدى المرحوم محمد الدسوقي عميد أسرتها أربعة جوازات سفر نل منها تذكر تاريخا غير الآخر في خانة تاريخ الميلاد، ويضيف: «بالرغم من أنني قمت باستخراج مستخرج شهادة ميلاد من السنبلاوين محافظة الدقهلية يذكر أن تاريخ الميلاد ١٩٠٤م (الرابع من مايو)، إلا أن الإجماع، وكبار أفراد الأسرة يؤكدون مولدها قبل ذلك بست سنوات أي: عام ١٨٩٨م، وأرجع أحمد عنتر مصطفى هذا الاختلاف إلى أن مصر في ذلك الزمن البعيد لم تكن بها سجلات للمواليد، وعندما حضرت أم كلثوم إلى القاهرة واقتضاها الأمر أن تستخرج أوراقًا رسمية ،وكلما طلب منها ذلك كاستخراج جواز السفر مثلاً، يقوم أحد الأطباء بتسنينها أي: وضع سن افتراضي لها ، ومن هنا جاء الاختلاف في تاريخ الميلاد، وفي المتحف جوازات من الجوازات المستخرجة لها، أحدهما يحمل تاريخ ميلاد عام ١٩٠٣م، وآخر يحمل عام ١٩٠٨م.

كان والدها الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي (المتوفى عام ١٩٣٢) إمام مسجد القرية ومؤذنها، ووصفه الموسيقار الشيخ زكريا أحمد عندما التقاه لأول مرة في محافظة الدقهلية عام ١٩١٧م بأنه «رجل قوى الإيمان شديد التقوى»، أما أمها السيدة فاطمة المليجي التي توفيت عام ١٩٤٧م فتولت رعاية الأطفال، أم كلثوم، وأختها سيدة والتي كانت تكبرها بعشر سنوات، وأخيها خالد، والذي كان يكبرها بسنة واحدة، ووصفت أم كلثوم والدتها بأنها كانت سيدة تعيش حياة بسيطة، وتغرس في أطفالها الصدق، والتواضع، والإيمان بالله.

بدأت أم كلثوم طفولتها بالمعاناة والشقاء، ويظل هذا مفتاحًا لفهم فنها ودورها، كما أنها وضعت دائمًا كل جوانب معاناتها نصب أعينها، والرجوع إلى فصول من مذكراتها المنشورة في صحيفة الجمهورية عام ١٩٧٠م بقلم ابن شقيقتها محمد

الدسوقى والكاتب الصحفي صلاح درويش، يكشف كثيرًا عنها كإنسانة، وكفنانة بسيطة لم تغادر قريتها ـ طماي الزهايرة ـ رغم ما وصلت إليه من مجد.

تقول:

«اتحرمت من كل حاجات البنت اللي في سني، الهدوم الملونة الزاهية، أم نص كم، ما كنتش ألبس في هذا الوقت ده غير «الجلابية» «اللى كانت بتجرجر في الأرض اللي لونها حشمة»، ولو خرجت لازم ألبس الطرحة،ما كنش بيبان مني، غير وشي بس».

وتضيف:

«كانت الأيام دى هية الفترة اللى تعلمت فيها كل شيء؛ لأنني ما تعلمتش في مدرسة.. أو تخرجت من جامعة.. المدرسة التى تعلمت فيها.. هية الأزقة والحوارى والأجران.. أتعلمت كتير من الفترة دى.. اتعلمت الصبر من الناس الفلاحين والغلابة.. اللى باشوات زمان وبهاوتها..كانوا بيذلوهم ويستعبدوهم، ومع كده كان الناس دول برضه... صابرين..زى ما كانوا عارفين إن الليل لازم يطلع له نهار.. وإن الظلم مش حيدوم أبدًا.. كنت باشوف الناس الغلابة دول صابرين.. بيشتغلوا..ويعرقوا.. و... البيه والباشا.. يأخذ خير البلد، وخير الأرض.. كنت دايما بأرفع إيديه للسما... وأقول يا رب لأنه ما كانش فيه غيره، يقدر يقف جنب الغلابة الفلاحين في الأيام دي.. في الفترة دي برضه تعبت كتير.. وقاسيت أكتر.. ياما غنيت في عز البرد...و«النطرة» عماله ترخ على المكان اللى باغني فيه.. كانت الناس تجري تستخبى..وأنا وأبويا.. قاعدين على الدكة لغاية ما يجي صاحب الفرح أو الليلة، يوقفنا، وندخل أقرب بيت من البرد و«النطرة ».

وتتذكر أم كلثوم ما كان يحدث أيام الحرب العالمية الأولى وما فعلته السلطات المصرية والاحتلال الإنجليزي من ممارسات وحشية ضد الشعب المصري، وظلت

هذه الممارسات عالقة في ذهنها لا تفارقها أبدًا، تقول:

«كان منظر الشبان اللى بتاخدهم « السلطة » بالعافية، يقطع القلب ويحسره..بعض العمد والمشايخ يسلموهم..كان الإنجليز يجروهم مربوطين في حبال من البلد لغاية محطة السكة الحديد.. كان بيركبوهم في عربيات (الحيوانات)... ما كانش فيه عناية بأكلهم، ولا شربهم، ولا صحتهم.. معاملة قاسية قوي! ما كانش فيه يوم بيمر حتى يكون في كل شارع (ميتم) لواحد من اللي خدتهم السلطة!!»

«ما كانش ده هو كل ظلم الإنجليز، لكن كان لهم حاجات تانية متقلش في فظاعتها عن (السلطة).. الغلة بتاعة الناس والمواشي..كانوا يأخدونها منهم بأقل من سعرها العادي.. فرضوا على كل مركز من المراكز، مقدار من (الغلة) يتورد للجيش الإنجليزى بثمن رخيص جدًا، وعلشان يوفي كل مأمور بالمطلوب منه.. كان العمد والمشايخ بيرغموا الأهالي على تقديم أكثر من (الغلة) اللي عندهم..كتير من الفلاحين الغلابة كانوا بيضطروا لشراء الباقي بسعر السوق، ويقدموه للإنجليز بالثمن رخيص.

وتصف أم كلثوم بلدتها وأهلها:

«كل الناس اللى كنا عايشين معاهم في البلد (طماي الزهايرة) طيبين.. الحب مالي قلوبهم...ما فيش حد على حد..الواحد من غيطه للجامع، عمري ما شفت وأنا صغيرة دخلتها عربية ـ أوتوموبيل ـ كل ما بنشوفه من بعيد حنطور.. بتاع حضرة العمدة بحصان واحد.. ما كانش فيه في البلد غير شارع واحد يمشي فيه «الحنطور».. و«شوية» حواري وأزقة تتسع يدوب لحمار شيخ الغفر، والغفر، وهم خارجين...من الدوار..».

لم تكن أم كلثوم تعي أي شيء عن بلاد غير قريتها الصغيرة، بل كانت تتخيل أنها كل العالم!!

«كنت وأنا صغيرة.. فاكرة أن بلدنا هية كل الدنيا..وإن ما فيش بلد تانية أحسن من مركز السنبلاوين»....أما «مصر» فدي ما كنتش أقدر أتخيل شكلها إيه..كنت فاكره إن البحر هوه الترعة اللى بيعوم فيها البط والوز عند أول البلد، والساقية اللى بتطلع الميه، والمسقى اللى فى الغيط.. كل دى هيه الحاجات اللى عنيه اتفتحت عليها في «طماي الزهايرة».

«عارفين إيه الحاجات اللى كانت تعجبني وأنا صغيرة في البلد..منظر فيضان النيل في الترعة.. ساعتها بيبقى الحشيش طالع أخضر من وسط الميه... أهو ده المنظر اللى بيفرحني صحيح...لغاية دولقت باحن إليه..فأركب «عربيتى».. وأروح لغاية «القناطر الخيرية».. خصوصًا أيام الميه بتاعة الفيضان اللى لونها بني... موش رايقة.. تصوروا المنظر ده لو قعدت قدامه ساعات ما أزهقش؛ لأنه بيذكرني بطفولتي التي أعتز، وأفتخر بها حتى اليوم».

أما أكلتها المفضلة في الطفولة.. وظلت كذلك حتى آخر يوم في حياتها. فكانت «السريس»، وهو نبات يطلع في البرسيم، و«الجبنة القريش».. وهى نفس الأكلة التى تعود الفلاح المصري على تناولها في الظهيرة وتتكون من «السريس»، و«الجبنة» والطماطم والمخللات، وتكون بمثابة الوجبة السريعة له.

تقول أم كلثوم:

«لغاية النهاردة (١٩٧٠م)..لما أروح البلد.. لازم يكون جنب الأكل مهما كان نوعه..أكلة الطفولة المفضلة.. وهى السريس والجبنة القريش..الأكلة اللى أسيب الحمام أو أى نوع من الطيور وأكلها.. صحتي لغاية دلوقتي بتيجي عليها، لدرجة أن أي واحد من البلد أعرف إنه جاي مصر..أطلب منه يجيب معاه هذه الهدية اللى باعتز بها حتى النهارده..وأحتفظ بالهدية لنفسى..ولا يشاركني فيها أحد.. الأكلة دى.. بتفكرني النهارده بأيام ما كنت في بداية الطريق.. بتذكرني بالأيام.. اللى

مسحت فيها بقدمي الصغيرتين القطر المصري قرية قرية.. بل كفر كفر، وعزبة عزبة..مشيت في السكة الزراعية المليانة تراب..حتى عرفت كل شئ عن كل بلادنا وناسها الطيبين.. وطباعهم... وعاداتهم.. وعلى فكرة... كانت أيام.. العرق فيها حلو والتعب فيها كويس.. ما كنش يهمني المشي.. مهما كانت المسافة ما كانش فيه توصيلة في أغلب الموالد والأفراح..غير «الركوبة».. يعني «الحمار».

و«كان عندنا «ركوبة» واحدة.. كان «أبويا» الله يرحمه، يركب قدام وأنا وراه..وأخويا الشيخ خالد في الآخر..وعندما يحس «أبويا» بتعب «الركوبة» أنزل وأمشي مع أخويا.. لأنني صغيرة أستحمل المشي...ومش معقول أركب وأبويا يمشي.. ولم يطل بنا الوقت.. فاشترينا «ركوبة» ثانية.. ليه أنا والشيخ خالد.. ثم اشترينا «ثالثة»، فأصبح لكل واحد فينا «ركوبة»..

«لما كنا نسافر في السكة الزراعية.. كان أبويا في الأول وأنا في الوسط، وأخويا في الآخر.. ومعانا.. أصحاب الفرح.. أو المولد.. كل سفرياتنا دايمًا في عز الظهر.

تضيف أم كلثوم:

«وقبل ما كنا نشتري «الركايب» كان أصحاب الفرح يبعتوا لنا «الحمير» علشان نروح بيها.. إذا كانت البلد قريبة..وياما بعد ما كنا نخلص الفرح أو الليلة..يسيبونا نرجع إلى «طماي» على رجلينا.. لكن برضه كان فيه ناس طيبين يوصلونا لغاية البلد كنت أغني لهم في السكة واحنا ماشيين علشان ما يندموش على توصيلنا.. وعلشان يرجعوا البلد يقولوا كده.. فيعمل الباقون زيهم».

«ولما كان الفرح يبقى في بلد بعيدة..كنا بنركب «القطر» في درجة ثالثة طبعًا..وأول ما يتحرك..آخذ أبويا وأخويا ونروح على درجة ثانية.. ولما الكمسارى بيجي ويشوف التذاكر.. أتحايل عليه يسيبنا... من زحمة.. درجة ثالثة..ولما يعرف إني البنت اللى بتغني في الموالد والأفراح يسيب «القطر»، وبيجي هو وزمايله يقعدوا

في الديوان معانا... وأغني لهم طول السكة ما كنتش أسكت إلا لما «القطر» يقف في المحطة «.. والحقيقة ما كانتش الزحمة السبب في «قعادنا» في «البريمو»، وإنما علشان الناس اللي مستنين في محطة البلد اللي انا رايحاها.. يشوفونا نازلين من «البريمو» فاحترامهم لنا يزداد.. ونكبر في عنيهم».

وتتذكر أم كلثوم:

«في سنة ١٩١٩م.. لما أجرى بقى ٨ و ١٠ جنيه.. كنت أقطع أنا واللي معايا.. تذاكر في البريمو..وكنا نقابل صعوبة كبير في استعمال «القطار».. ما كانش فيه قطارات كتير زي دي الوقت.. كان يدوب «قطارين»، أو «ثلاثة» كل ٢٤ ساعة.. ده خلانا نقعد على المحطة بالساعات في الصيف ما كنش يهمنا... أما في الشتا.. كانت الدنيا.. برد وأمطار.. فكان أبويا يروح لناظر المحطة.. يتحايل عليه.. ويجيب منه مفتاح الاستراحة..وساعات كنا ندخل مكتب «المعاون» أو «الناظر» ويولع لينا.. وأقعد أنا أغني لغاية «القطار» ما ييجي..وياما من الحكايات دي كتير».

وتتذكر أم كلثوم بعضًا من معاناتها الصعبة والقاسية وهي تغني في ليالي الأفراح القاسية في قرى ومراكز محافظات الوجه البحري:

«يا ما كنا بنروح ليالي وأفراح.. وأشوف الويل والغلب فيها...مرة كنت هاموت قتيلة بحق وحقيقي..وأنا واقفة باغني في دوار عمدة بلدة جنب مركز «أجا» (محافظة الدقهلية) بصيت لقيت واحد سكران طينة.. وواقف بيشاور ليه... ويقول:

«يا أختي إنتي.. عايزين حاجة فرايحي..عايزين شوية فرفشة ونعنشة.. عايزينك تقولي لنا: كام موال.. وكام ياليل..وكمان كام ياعين.. موش كده يا جماعة»..مبصتش له.. وفضلت أغني زى ما أنا ماشيه..وبعد الناس ما قعدوا وقف تاني.. وقال نفس الكلام.. بصيت لأبويا وأخويا... وللناس اللي في الليلة.. في

الحقيقة كنت باستنجد بيهم.. علشان يخلصوني من الشخص ده.. ولما هبوا فيه راح مطلع مسدس من جيبه.. وقال أنا ها موتكم كلكم يا أولاد... ولو البنت دى لو مغنتش زى ما أنا عايز... أغلب الناس جريت.. وسابوا الليلة.... وسمع العمدة «الزيطة» والصراخ في الدوار... وسأل إيه الحكاية.. فأشاروا على ابنه اللى كان موجه ا لمسدس ليه... وأبويا عمال يتحايل عليه.. ويحلف له حاغني كل اللى هو عايزه.. وجرى «العمدة» ناحية ابنه.. فرمى المسدس من ايديه... وحاول أن يزوغ.. ولكن أبوه نزل فيه ضرب.. وبعد كده برضه.. كملت الليلة..والناس رجعت تاني.. ومنع العمدة ابنه من النزول من البيت في الليلة دي».

«حكاية تانية حصلت لى.. عند طنطا.. قبل ما تبدأ الليلة.. سألت صاحبها.. «فرح.. ولا ليلة لله».. فقال: لو جيتي للحقيقة لا دي ولا دي.. أنا بصراحة ربنا.. عاملها أُجُرْ رِجلين أهل البلد اللى جانبينا.. أصلنا متخانقين معاهم.. وعايزين نضربهم.. وكل اللى أنا عايزه منك أنت والناس اللى معاك لما تشوفي الخناقة اشتغلت.. ادخلوا الأودة(الحجرة) اللى أنا فاتح عليها باب من «الشادر»... وخلوا بالكم من نفسكم... وأنا خالي من ذنبكم بعد كده.... وغنيت شوية..وبعد حوالي نص ساعة.. بدأت النبابيت والعصيان تعمل عمايلها..وجريت أنا واللى معايا نستخبى.. وفي اليوم ده.. أهل البلد اللى كنا فيها أكلوا علقة سخنة.. لأن جيرانهم كانوا عارفين الحكاية ومستعدين لها».

قبل أن تغطي شهرة أم كلثوم مناطق الوجه البحري. زادت المعاناة أيضًا..وكادت في مرحلة طفولتها أن تنسحب من الميدان، لولا إيمان والدها الشيخ إبراهيم البلتاجي بموهبتها، التي بدأت ملامحها في كُتاب القرية وظهر نبوغها ومهارتها في تجويد القرآن بالطريقة الصحيحة ،تتذكر:

«كان سيدنا الشيخ إبراهيم.. بيحرص دائمًا وأنا باسمع قدامه بعض السور أن

أقرأها بالترتيل ،وفي هدوء،غير كل «الولاد» اللى معايا في الكتاب».

وفي التاسعة من عمرها سمعتها صديقة الطفولة، بنت شيخ قرية «طماي الزهايرة»،وكانت تكبرها بحوالى ثلاثة أعوام،ولم تكذب خبرًا.. فأسرعت إلى بيتها في شرق البلد، وأبلغت والدها.. الذى تطوع بإذاعة الخبر بين أهل القرية..وتطوعت زوجته بنشره بين «الحريم».. وبعد يومين فوجئت السيدة «فاطمة المليجي» والدة أم كلثوم بعدد من نساء القرية ومن بينهم زوجة شيخ البلد وابنته يطلبن سماع صوت المحروسة... وتكررت هذه الزيارة عصر كل يوم مع ازدياد العدد، وتعتبر هذه الأيام في حياة أم كلثوم هى التجربة الأولى لها في مواجهة جمهور غير أفراد أسرتها.

وجاء الدور على رجال القرية.. فطلبوا من «العمدة» أن يتوسط لهم عند الشيخ إبراهيم..لتحضر ابنته إلى «الدوار» ليسمعوا صوتها الذى لا حديث «للحريم غيره»... وغير حلاوته.. ورغم رفض الوالد في البداية إلا أنه وافق تحت إصرار العمدة وإلحاحه،وذهبت بنت التاسعة يرافقها «أبوها» إلى «الدوار»، وفي غرفة «الحريم» قرأت القرآن، ثم قدمت التواشيح..بينما تجمع أهل القرية شبابًا وشيوخًا ونساء في الخارج حتى ملأوا الدوار والشارع المؤدي إليه..والكل لا يصدق أن هذا الصوت هو صوت الطفلة «أم كلثوم»:

«من اليوم ده.. أصبح بيتنا بيحبه كل أعيان البلد.. والناس الصالحين..كل واحد يطلب أن أروح بيته.. زى ما رحت بيت «العمدة».. وكان أبويا الله يرحمه ما يحبش يكسف حد».

أقنع أهالي طماي الزهايرة وخاصة أعيانها.. الشيخ إبراهيم البلتاجي أن يشرك ابنته معه في الموالد..وبعد تردد حسم أمره وبدأ في إشراكها في بطانته وكان مقرئًا للقرآن ومؤديًا للإنشاد الديني في الموالد والحفلات... وبعد إشراكه لها في بطانته

بإحدى الليالي في إيتاي البارود (محافظة البحيرة) طلب الأهالي من الشيخ إبراهيم أن يسمعوها في إحدى قصائده، وأمام إلحاح الأهالي وقفت ومن خلفها والدها وشقيقها الشيخ خالد..ولم يصدق الجمهور الذى ملأ «جرن» البلدة.. أن كل هذا الجمال في الصوت ينطلق من هذه الطفلة، ومن تلك الليلة لم يتمكن أخوها وأبوها من تقديم القصائد الدينية، حيث أصبحت هى المطلوبة من المستمعين.

مع تكرار خروج أم كلثوم إلى الموالد.. ثارا شقيقًا الشيخ إبراهيم وهدداه بالمقاطعة، ففضل الشيخ أن يضحي بمستقبل ابنته بدلاً من خسارة إخوته، وحاول إقناع أم كلثوم بالابتعاد عن هذا الطريق، فقالت له: «زى ما أنت عايز يابا..أنا عمري ما أزعلك.. أنا ماليش حد في الدنيا غيرك.. وكل واحد بياخد على قد نصيبه».

هذا التخوف من الشيخ إبراهيم على ابنته وثورة شقيقاه عليه، كان انعكاسًا صادقًا للمناخ الاجتماعي السائد حينئذ، والذي «كان يضع المطربين والمطربات في مكانة متدنية، فمعظم المصريين كانوا يقبلون على شكل أو آخر من أشكال الترويج الموسيقي في الأماكن العامة، أو الخاصة، وكان العاملون في هذا المجال يعيشون ويعملون في جميع أنحاء مصر تقريبًا، ومع ذلك فلم يكن الشباب يلقون أي تشجيع على امتهان عمل كهذا، أو مخاطبة من يمتهنه، وفضلاً عن صعوبة كسب الرزق بالغناء وصعوبة الظروف التي تواجه المغني المبتدئ، فقد بدا أن الموقف السائد من الغناء كان أساسه فكرة الناس عن احترام المرء لذاته، فوقوف الفنان على خشبة المسرح ليتفرج عليه الآخرون. وهو يمثل أو هو يغني أغاني عاطفية أو هو يرقص، وهذا أسوء الأحوال، كان في رأي الناس إهدارا للوقت في عمل تافه لا يتفق وسلوك الذي يحفظ للمرء كرامته، ويتحول المشتغل بالفن إلى نجم يمكنه حينئذ أن يتخلص من الأحكام الظالمة التي يصدرها الناس عله مسبقا» (*).

(*) صوت مصر أم كلثوم – كتاب – فرجينيا دانيلسون – ترجمة عادل هلال عناني – المجلس الأعلى للثقافة – مصر – ٢٠٠٢م.

وتحفظ السجلات التاريخية عشرات الوقائع التي تبين مدى المعارضة الشديدة لكبار المطربين من أهلهم بسبب إقدامهم على الغناء، وأبرزهم الشيخ سيد درويش ، الذي أقسم زوج أخته ألا يدخل الشيخ سيد بيته إذا لم يهجر الغناء، ويعمل معه في محل نجارة الموبيليا الذي يملكه، وقبل درويش هذا إلى حين ،أما الموسيقار محمد عبد الوهاب فكان يردد دائمًا أن أخيه جره من فوق خشبة المسرح إلى الخارج، وظل يجره في الشوارع حتى وصل به إلى المنزل، أما الشيخ زكريا أحمد فلم ينس تعنف أبيه قائلا له: «أنت من أسرة محترمة وتريد أن تكون واحدًا ممن تدور حياتهم حول يا ليل يا عين».

وما حدث لسيد درويش ومحمد عبد الوهاب وزكريا أحمد، كان امتدادا لما حدث قبل ذلك بسنوات للمطرب والملحن عبده الحامولي، الذي فر من وجه أبيه لأنه لم يكن راضيًا عن اشتغاله بفن الغناء، ويقول قسطندي رزق الذي عرف الحامولي، وألف كتابا عنه: «كان عبده صالحًا يقيم الصلاة في مواقيتها، وبارًا بوالده وقد فر من وجهه؛ لكونه غير راضٍ عنه، لاشتغاله بفن الغناء الذي كان وقتئذ يعد في مصر مهنة محتقرة ومسقطة لمحترفها من عيون الناس، وحدث نقلاً عن المقطم (صحيفة) بتاريخ ١١/ ٩/ ٩٣٤ هجرية توقيع حضرة رزق الله شحاته الموسيقار : « أن الخديوي إسماعيل قصد زيارة مديرية الغربية، فأراد سعادة المدير أن يجعل الاحتفال بقدومه في غاية الفخامة والأبهة،ورأى أنه لا يكمل السرور في تلك الحفلة إلا بإحضار أعظم المطربين، فدعا المرحوم عبده الحامولي، ورأى أن هذه خير فرصة يسترضي فيها والده عنه ،فقال لسعادة المدير أريد أن أطلب منك شيئًا واحدًا وهو أن تجعل أبي يرضى عني، فأرسل سعادة المدير تلغرافًا في الحال لوالده فحضر الحفلة الليلية، وكان عبده جالسًا في حضرة الخديوي إسماعيل، وحاشيته فدعاه المدير إلى جانبه وسأله. هل أنت غاضب على ابنك، وأنت تراه في حضرة أفندينا، فكان جوابه

«أنا وابني وأولادي عبد لأفندينا وأقبل عليه وعانقه» (*).

الزمن الذي يفصل بين ما حدث للحامولي، وبين ما حدث لسيد درويش، وزكريا أحمد، ومحمد عبد الوهاب يقترب من ٤٠ عامًا، فالحامولي بدأت شهرته في عصر الخديوي إسماعيل ورحل عام ١٩٠١م، وزكريا وعبد الوهاب بدأت مسيرتهما مطلع العشرينات من القرن العشرين، ورغم هذا التباعد ظلت النظرة واحدة فالمطرب، أو المطربة في مكانة متُدنية حتى يتحول إلى نجم، وحينئذ تتغير النظرة.

لم تكن أم كلثوم استثناء من هذا، بل كان الأصعب بالنسبة لها أنها امرأة تدخل هذا العالم المرتبط في أجواء الريف وقتئذ بأشياء مرذولة كالخمر، والمخدرات، ولعب القمار، ولولا شجاعة أبوها في التعامل مع مجمل هذه المعطيات ذات الإرث التاريخي ما كان هناك أم كلثوم الفنانة، وبدأت شجاعة الشيخ إبراهيم بأحزان خيمت عليه حتى رأى أحلامًا مزعجة، أكد تفسيرها ضرورة عودة ابنته لقراءة القرآن، وغناء القصائد، والتواشيح، وبعد تدخل عمدة طماي الزهايرة وأعيانها لدى أشقاء الشيخ إبراهيم، عادت أم كلثوم للغناء، ولكن بشروط هى ألا تتخلى عن «العقال والعمة» ولا يظهر منها أمام الجماهير غير الوجه وأصابع اليدين فقط.

عادت أم كلثوم من جديد إلى الغناء، وتتذكر أول مواجهة للجمهور في حفل تعتبره أول بدايتها الفنية:

«كانت أول مرة أغني فيها.. في فرح عند مأذون بلدنا..وكان ده شرف كبير لينا.. ما أخدتش ولا مليم.. غير كباية شربات.. وطبق مهلبية..وفي آخر الليل.. وفي الليلة دي.. كل البلد سمعتني.. وقالوا رأيهم لتاني مرة بعد اليوم اللى غنيت فيه في «أودة الحريم» في بيت العمدة.. وأنا فاكره أنني غنيت في الفرح بتاع

(*) – الموسيقى الشرقية والغناء العربي – مع السيرة الذاتية للفنان عبده الحامولي، كتاب : قسطندي رزق، مكتبة مدبولي – القاهرة – عام ٢٠٠٠

المأذون...أغنية..

أقول لذات حسن ودعتني

بنار الوجد طول العمر آه

وفي تاني يوم.. دعوني لفرح «غفير نظامي» في عزبة الحوال.. القريبة من بلدنا.. غنيت فيه لغاية الصبح.. في الليلة دى خدت أول أجر في حياتى.. كان عشرة صاغ..وكانت المعاملة في الأيام دى بالريال.. يعني خدت «نص ريال».. مكانش المبلغ ده نصيبى لوحدي..وإنما كان بيشاركني فيه أبويا وأخويا الشيخ خالد..وبعد كده بخمسة أيام.. دعاني الحاج يوسف تاجر «الغلة» في مركز السنبلاوين لإحياء ليلة. برضة فاكرة غنيت فيها

حسبي الله من جميع الأعادي

وعليه توكلي واعتمادي .

.. في الوقت ده.. كنت باغني من الساعة تسعة لغاية الساعة اثنين الصبح على طول.. وقد إيه كانت فرحتي في الليلة دي لما صاحب الفرح مد إيده وأعطاني المعلوم.. كان ريال بحاله.. ما كنتش مصدقة عينيه.. كان مبلغ كبير خالص في الوقت ده.. وقبل ما نمشي مد الرجل الطيب إيده وأعطاني كمان « ربع ريال ».. اتهيأ لي.. أنا وأبويا وأخويا في الليلة دي.. إننا أصبحنا من الأغنياء ».

... وبعد كده فكر حسن أفندي حلمى... التاجر في محطة «أبو الشقوق» في أحياء «ليلة بفلوس».. الناس اللي تقعد في الأول تدفع «ربع ريال» يعني الدرجة الأولى النهاردة.. واللي بعدهم يدفعوا «تلات قروش» والدرجة الثالثة بلاش؛ لأن الناس هتبقى واقفة بره الخيمة اللي كان عاملها عند المحطة..

والحمد لله ربنا وفقنا.. ونجحت الليلة بشكل ما كناش نحلم بيه، جه ناس في «الليلة من كل البلاد المجاورة.. وكان فيهم بعض أهالي «المنصورة»... «بلدياتي»..

قد إيه كانوا فرحانين.. جاءوا يهنوا.. يهنوا واحدة من مديريتهم..

وعلى فكرة ما كنتش عارفة إن « الحفلة » نجحت إلا لما «حسن أفندى» أعطاني «جنيه ونص».. بصيت للجنيه ونص موش مصدقة عنيه.. لأنه كان أول جنيه تمسكه إيدي في حياتي.. كانت الدنيا موش سايعاني.. في كل دقيقة «أبوس» الجنيه.. وأنا هاطير من الفرح.. كنت باتنطط.. وباقول: يا أرض اتهدي ما عليك قدي أنا معايا جنيه!

وفي الأسبوع اللي بعديه.. دعانا عبد المطلب أفندي الموظف بدائرة المرحوم الشناوي «باشا».. علشان نعمل الفرح بتاع أخوه في «كفر دماص» بندر «المنصورة».. وكان أجرنا في الليلة جنيه ونصف بما فيها مصاريف الانتقال..

وحبة... حبة.. بدأت أشعر أنني بقيت حاجة.. وقد إيه فرحت.. ومليت الدنيا فرح.. لما دعوني علشان أغني في مركز « أجا » حسيت إنني أصبحت مغنية «عالمية».. ثم لقيت نفسي.. بانتقل من مديرية الشرقية.. لما غنيت في فرح «بكفر صقر».

غطت شهرة أم كلثوم الوجه البحري حتى قدمت أول حفلة لها في القاهرة، أقامها الشيخ زكريا أحمد والشيخ محمد أنور في حي السيدة زينب لصالح أسرة فقيرة.. وكان الشيخ زكريا أحمد قد تعرف عليها هو والشيخ أبو العلا محمد في عام ١٩١٩م وهي لا تزال صغيرة، عندما كان الشيخ زكريا يحيي شهر رمضان عند «على أفندي أبو العنين»، وكيل الثري «إيلي الدرع» المشهور في ذلك الوقت بمدينة السنبلاوين وكان الشيخ أبو العلا محمد يفعل نفس الشيء ولاحظ الشيخ زكريا خلال ليالي الشهر، أن هناك آنسة صغيرة ، تنصت إليه باهتمام شديد وتسمعه بشغف، فأثارت انتباهه، وسأل عليها..

فقالوا له: وحسب كلام أم كلثوم:

«دي أم كلثوم.. بنت الشيخ إبراهيم البلتاجي من طماى.. وبتيجي كل ليلة...

مع أخوها خالد عشان تسمعك..وترجع تانى، أصلها.. بتغني برضه زيك في الأفراح والليالى».

قبل الانتقال إلى القاهرة وقع لها حادث في أحد قصور أثرياء هذا الزمان ظلت ترددد طوال حياتها؛ لأنه فتح لها عالم آخر ففي عام ١٩١٧م ذهبت لإحياء حفلة في حلوان في قصر عز الدين يكن بك بمناسبة ليلة المعراج، ولما رآها جن جنونه ورفض أن تغني، وأمر أن تظل ومن معها في بدروم القصر حتى لا يراها أحد، واستدعي الشيخ إسماعيل سكر لإحياء حفلته، وقضت أم كلثوم ليلة رهيبة في بدروم القصر تبكي، ولما أبلغ الخدم زوجة عز الدين ببكائها نزلت إلى البدروم، فارتمت أم كلثوم في أحضانها، وتتذكر ما قالته لها:

«حرام كده نتحبس هنا... طيب سيبونا نروح ما دام مافيش ليلة.. أعمل إيه حظي كده.. وأنا ياست، قد إيه كنت واضعة أمل في الليلة بتاعتكم دى.. كنت باقول في السكة لأبويا وأنا جايه.. إن السعد مواعدنا عندكم الليلة.. بعد «المعازيم» الكبار ما يسمعوني لكن ربنا يمكن له حكمة في اللي حصل»..

ربتت زوجة «البيه» على كتف «أم كلثوم».. وأحاطتها بذراعيها هامسة بصوت لا يسمعه إلا من في البدروم:

«إنت صعبانة عليه خالص والنبي.. أصل عز «بيه» يا بنتي، كان فاكرك مبهرجة زي الستات اللي بيغنوا في مصر»..

فنظرت إليها «أم كلثوم»، وهي بين أحضانها.. وقالت بصوت خافت:

«إنا يا ست هانم» غير دول.. أنا عايشة في الفلاحين.. ما أقدرش اتبهرج.. وألبس غير الحشمة.. إحنا ناس بتوع ربنا.. بندور على لقمة العيش بعرقنا.. اللي جاي يدوب على قد اللي رايح.. إنتي عارفي «يا ست هانم».. أن أهلي ما كانوش عايزني أغني.. وكان لهم شروط.. وكان أبويا منفذها.. قبل ما يقولوها.. شروطهم

إني أكون كده.. بسيطة.. عادية.. غير مبهرجة.. وصحيح إزاي ألبس «أفرنجي» وأنا بامدح النبي.. وأقول التواشيح».

رق قلب الزوجة لأم كلثوم، وطلبت منها الغناء.. فغنت: «سبحان من أرسله رحمة لكل من يسمع ويبصر».. وخرجت زوجة «البيه» والدموع تبلل خديها، ونجحت محاولتها في إقناع زوجها لسماع هذا الصوت النادر.. ولما استمع إليها اتجه إليها وقال لها:

«حقك علي يا ابنتي... سامحيني علشان خاطر النبي.. أنا هاعوض لك.. كل اللي حصل.. هاديكي زي ماأنت عايزة.. أنت تستاهلي مال قارون».

وغنت، واهتز لها الحاضرون بما فيهم الشيخ إسماعيل سكر الذي اشترك مع بطانة أم كلثوم في ترديد الأغاني والتواشيح.. عندما رأي عز الدين بك يخلع طربوشه إعجابا بصوتها، فخلع الطربوش كان دليل الإعجاب في مثل هذه الليالي. كان أجر أم كلثوم لهذه الليلة ثلاثة جنيهات خلاف مصاريف الانتقال، وطبقًا للعقد الموقع، فإنه في حالة تأخرها سوف يدفع والدها عشرة جنيهات غرامة

والمؤكد أن الإعجاب الذي حظيت به أم كلثوم ممن استمعوا لها في قصر عز الدين يكن منحها المزيد من الثقة خاصة، وأن ليلتها هذه جاءت بعد رفض لها، وتوسلات منها بالغناء وعلى كل حال كانت مثل هذه التجارب بمثابة تعبيد للأرض التي تسير عليها أم كلثوم نحو محطتها الحلم، وهي محطة الانتقال إلى القاهرة، وكما أشرنا من قبل لدور الشيخ زكريا أحمد، والشيخ أبو العلا محمد في هذا الأمر، خاصة الشيخ أبو العلا أستاذها الأول، ولتترك أم كلثوم تحكي عن قصتها مع هذا الرجل، وما فعله من أجل انتقالها إلى القاهرة:

تقول أم كلثوم:

«كنت متشوقة أشوفه وأسلم عليه بإيديه.. كنت باحب صوته من يوم ما سمعته

في «المكنة» بتاعة شيخ البلد.. أبو صاحبتي «عيشة» كنت كل يوم معنديش فيه شغل أروح عندها علشان تدور الأسطوانة بتاعته.. وأقعد سرحانة وأنا باسمعه.. كان في رأيي أحلي صوت في الدنيا.. كان حلو مافيش بعد كده حلاوة.. كنت بافكر دايمًا إنه موش زي كل الناس اللي سمعتهم قبل كده.. علشان كده.. قلت لأبويا.. لازم نروح «السنبلاوين» ونسمعه.. وما كانش أبويا الله يرحمه بيردلي طلب.. ورحنا المركز.. وقعدنا مع الناس اللي بتسمع الشيخ أبو العلا.. ماكنتش مصدقة عنيه.. ولما خلص.. جريت ورحت عند الدكة بتاعته ولحقني أبويا وأخويا خالد.. زاحمت كتير.. لغاية ما بقيت قريبة منه.. وسلم أبويا وأخويا عليه.. ومديت إيدي زي كل الناس.... فسلم عليه بسرعة.. الناس كتيرة عايزة تسلم عليه... رجعت تاني وقالت أسلم... عايزة إيدي تستني في إيديه أكبر وقت عايزة أكلمه موش قادرة أنطق..كانت مفاجأة كبيرة..

وقلت لأبويا: اعزمه والنبي عندنا.. أنا عايزه أقول له حاجات كتيرة.. عايزة أسمعه لوحدي.. عايزه يسمع صوتي.. ويقول رأيه.. عايز أعرف رأيه في قعادنا في مصر على طول.. دا راجل طيب هيقول الحق.. رأيه يابا مهم قوي في الحكاية دي.. وأهو أنت شايف الجوابات اللي بتيجي والناس اللي بتنصحنا نسافر ونقعد في مصر.. رأي الشيخ أبو العلا مهم قوي والنبي «يابا» في الحكاية دى..

لبى الشيخ إبراهيم البلتاجي رغبة ابنته، ودعا الشيخ أبو العلا محمد في منزلهم.. وطلب الضيف أن يستمع إلى أم كلثوم.. لكنها رفضت في البداية ثم لبت طلبه وتبرر رفضها قائلة:

ـ رفضت؛ لأنني كنت أريد أن أسمع صوته وحده... أريد أن أملأ أذني بكل كلمة وكل نغمة ينطق بها.. أريد أن أحفظها عن ظهر قلب، وأحافظ عليها لأرددها في كل دقيقة تمر بعد ذلك، فالشيخ أبو العلا فنان كبير له قيمته في عالم الغناء

والطرب.

ولم أقو على الاستمرار في الرفض عندما أصر الشيخ أبو العلا على سماعي، قلت لنفسي وقتها: لقد جاءت الفرصة ليقول مثل هذا الفنان الكبير رأيه، وقبل أن أغني أمامه قرأت «الفاتحة والصمدية».

غنيت أمامه بعض القصائد الدينية... كنت باغني وعيني على حركات وجهه حتى إذا شعرت أنه غير راض عن أدائي، توقفت بسرعة، ولكنني اجتزت الامتحان الصعب.. فقد اقتنع بي الشيخ أبو العلا، وتأكد لي ذلك من حركات رأسه مع صوتي.. ولما انتهيت من الغناء التفت إلى قائلًا:

«هايلة.. هايلة خالص... الله يفتح عليكي..»

ولم أصدق أذني فسألته:

ماذا يقول الشيخ أبو العلا.. إنني أريد أن اسمع ما قلته مرة أخرى أريد أن أسمعه مائة مرة..

ورد الشيخ أبو العلا.. موجها كلامه لوالدي: الله حاجة كويسة خالص، لو جت أم كلثوم مصر حتلاقي نجاح كبير، خسارة إنها تحصر شغلها في الريف بس... تعالوا مصر.... واقعدوا هناك... وأؤكد أن ربنا هيوفقكم، وحتكونوا حاجة تانية غير كده.

لم تصدق أم كلثوم ما سمعته:

«بصراحة لم أصدق أن الذي يقول ذلك، هو الشيخ أبو العلا أحسن وأشهر مغني في ذلك الوقت..

ونظر الشيخ أبو العلا لوالدها:

«يا شيخ إبراهيم... أنا موش بأقول الكلام ده مجاملة علشان ما أنا في بيتك. لكن دي شهادة أنا مسئول عنها. أمام ربنا.. حرام يا شيخ إبراهيم تضيع مستقبل بنت

زي دي.. ربنا إداها الموهبة.. دي في رأيي أحسن من كتير عندنا في مصر.

فرد عليه الشيخ إبراهيم: يا شيخ أبو العلا.. أنت عارف مصر.. وعيشة مصر.. إحنا على قدنا.. مالنا ومال الزيطة اللي هناك.

- والتفت الشيخ أبو العلا إلى والد أم كلثوم.. قائلا:

«في مصر ناس بتحب اللون اللي بتقدمه بنتك، اللون الوقور، وعلى فكرة اللون ده له معجبين كتير.. أنا برضه بأغنيه، وبيغنيه الشيخ إسماعيل سكر. بس الفرق بين اللي بتقدمه بنتك إننا بنلحن الكلام بطريقة نقدر نقف بيها أمام الأغاني التانية».

رد الشيخ إبراهيم:

«ربنا يعمل اللي فيه الخير يا شيخ أبو العلا.. دا كل شئ قسمة ونصيب.. أوعدك أنني حافكر في حكاية مرواحنا مصر.. وأبعت لك جواب على طول برأيي»..

وأخذ الشيخ إبراهيم عنوان الشيخ أبو العلا ليراسله، وبعد أن انتهي الحديث، التفتت أم كلثوم إلى والدها، ولكنها وجهت كلامها للشيخ أبو العلا قائلة: «أريد سماع صوت الشيخ أبو العلا.. أريد أن أتأكد أنه موجود فعلاً في بيتنا.. أريد أن أسمع كل ما عنده«وسكتت » ليخيم الصمت على الجميع لينطلق صوت الشيخ، وتصف أم كلثوم جماله: «وكأنه صوت كروان... كنت مشدوهة بعذوبته ونقاوته»..

تضيف: غنى في هذا الوقت الكثير..

ومنها «أفديه إن حفظ الهوا أو ضيعا» طلبت إعادتها لأحفظ منه اللحن وطريقة الأداء.. لقد كان الشيخ أبو العلا.. على الطبيعة أحسن صوتًا وأكثر عذوبة من الأسطوانات التي سمعتها له من قبل..

لبى الشيخ إبراهيم البلتاجي نداء الانتقال إلى القاهرة الذي أطلقه الشيخ زكريا أحمد وصمم عليه الشيخ أبوالعلا محمد، وبعد فترة من إنتقال العائلة المكونة من الشيخ إبراهيم وأم كلثوم وأخيها خالد ووالدتها، واستقرارهم في عابدين قدمت

أول حفلة لها في سرادق في شارع خيرت بالقرب من جريدة (اللواء) التي كانت تصدر في ذلك الوقت.. وفي هذا الحفل الذي نظمه متعهد حفلات اسمه محمد أبو زيد، شارك الفنان حسن فائق بمنولوجات والمعروف أنه كان يلاقي اضطهادا سياسيًا بسبب منولوجاته الوطنية خاصة بعد نفي سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل، وقدم منولوجًا عن ذلك اسمه: مصر تناجي سيشيل.

وتوالت حفلاتها بنجاح كبير، رغم المضايقات الكثيرة وتقول عن هذه المرحلة:

«كنا راضيين بأي شيء.. لأن الذي يرزق الجميع هو الله.. لقد كان كل همي أن أقف على قدمي في القاهرة.. وأثبت وجودي.. (الفلوس) كانت آخر حاجة نفكر فيها.. من أجل ذلك لم ندقق مع المتعهدين الذين ضحكوا علينا في بداية عملنا..وكان والدي يصدقه ويتنازل له عن جزء من الأجر المتفق عليه، فبعد أن يكون الاتفاق على سبعة جنيهات يصل إلى أربعة.. كان ذلك يحدث بالرغم من أننا كنا نكتشف كذب ما يقول.. فأحيانا كانت الصالة تضيق بالجمهور.. فيأتي المتعهد بمقاعد إضافية.. وأحيانًا يطلب المتعهد الحضور مبكرًا قبل ميعاد الحفل بأكثر من ساعتين ثم يطلب منا أن نطل على الصالة.. فنراها شبه خالية.. وتبدأ المساومة مع والدي..ولكنني كنت أفاجأ وأنا على المسرح أن الصالة مليئة بالجمهور.. ومع مرور الأيام تنبهنا إلى هذه الحيل، فلم يعد لها مكان»..

وهناك من التفاصيل الكثيرة تتعلق بالاستقرار النهائي في القاهرة وبدء نشاطها الفني فيها، وتم ذلك في عهد السلطان فؤاد الذي تولي الحكم خلفا للسلطان حسين كامل (١٩١٤ – ١٩١٧) وتحول فؤاد من سلطان إلى ملك يوم ١٤ مارس عام ١٩٢٢م وعلى الرغم من هيمنة الاحتلال الإنجليزي وتحكمه في كل شيء رأى فؤاد أن اليوم الذي تحول فيه من سلطان إلى ملك جعل من مصر دولة «متمتعة بالسيادة والاستقلال»!

كان المشهد الغنائي وقتئذ بلا هوية، ويلخصه الكاتب الصحفي صلاح عيسى، بأنه المشهد الذي انتهى فيه العصر الكلاسيكي للغناء الذي لمع فيه عبده الحامولي و« ألمظ » و«محمد عثمان» و«سلامة حجازي».. يقول صلاح عيسي «بعد يا ملك قلبي بالمعروف» و«سلامي عليك يا زمان» انتقل «الفرانكو آراب».. من المسرح إلى الغناء. وتقدمت «منيرة المهدية» لتتصدر المشهد الغنائي بصوتها القوي الذي تخلله بحة غجرية بدائية في قرارها نداء حسي لا تخطئة عين.. وانتشرت الأغاني الهابطة التي تؤجج الشبق للجنس، باعتباره موضوعًا في ذاته، لا صلة له بأية عاطفة إنسانية، باعتباره – كالمر – مفتاح الفرح، لقوم يعيشون آخر أيام أعمارهم، ويريدون أن يعيشوا في غيبوبة خمر،وغيبوبة حس، لتكون البرزخ بين فورة الحياة، وعدم الموت.

يضيف عيسى: على حناجر المطربات والمطربين، من «منيرة المهدية» إلى «نعيمة المصرية»، ومن «الست وحيدة» إلى «الست رتيبة»، ومن «صالح عبد الحي» إلى«عبد اللطيف البنا» انتقلت كلمات المداعبة الجنسية من غرف النوم إلى غرف حفلات الغناء في الصالات والمسارح، وتحولت إلى اسطوانات طبعتها شركة بيضافون، وبيع منها ألوف من النسخ، لتسمعها السيدات المخدرات في البيوت، أما «الست منيرة» و«الست نعيمة»، و« الست توحيدة » وبقية الجوقة، فسوف يغنون أغاني من نوع «ارخي الستارة اللي في ريحنا أحسن جيرانك تجرحنا / يا فرحانين يا مبسوطين/ يا مفرفشين يا مزأطين بالقوي يا حنا».. وبعد أن يصف عيسى هؤلاء بـ «جوقة مطربات الحرب العالمية الأولى»، يستكمل قراءة المشهد بذكره واحدة مما قدمته الست نعيمة المصرية «ما تخافش عليا، أنا واحدة سيجوريا (أي: مضمونة باللغة الإيطالية)، في العشق يا أنت واخده البكالوريا »أما منيرة المهدية: «من إيدي وداني ع الموسكي / وسقاني كونياك على ويسكي، وقال يا منيرة آنستي / مادام شربنا.. نبات الليلة / وخدني ودخلني الأودة / لعبنا سوا وبقت موضة.. حط إيده على

شعري يامه يا شعري / قمت أنا اتخضيت / وحط إيدي على حاجبي / يامه يا حاجبي / قمت أنا أتلذيت». وفي طقوطقة أكثر إباحية قدمت الست رتيبة: «خدني في جيبك بقا / بين النهود والمنطقة»، أما عبد اللطيف البنا فلخص المرحلة في مونولوج بيقول مطلعه : « الستات دول لذتنا. والبنات هما همزتنا».

ساد هذا اللون (الطقاطيق) من الغناء في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولي في مناخ اجتماعي، وسياسي تصفه الباحثة الأمريكية فرجينيا دانيسلون: «أقبل المصريون من أفراد الطبقتين العليا والمتوسطة، متابعة الجديد في مجال الغناء بشراء الاسطوانات المسجلة، وتذاكر الحفلات الفنية، وصدر ما يزيد على اثنتي عشرة من المجلات المختصة بالموسيقي، والمسرح، أو المجلات التي أفردت بين صفحاتها أبوابا مهمة لأخبار الفن والنقد الفني، واتسعت رقعة الإقبال على النشاط الفني لتشمل مؤسسات تجارية مثل المسارح وشركات تسجيل الاسطوانات بالإضافة إلى الأفراد والعائلات».

ويقول الشاعر الغنائي سيد حجاب:

«صحيح أن كثيرا من المغنين والمغنيات أسهموا بأصواتهم، وأغنياتهم في ثورة ١٩١٩م، لكن الغناء المصري كان منقسما على نفسه تتنازعه عدة إتجاهات وطرائق.. كان هناك الإنشاد الديني «الإسلامي والقبطي» الذي تعود جذوره الى مصر الفرعونية، وكان هناك غناء النخبة من الأتراك والمستركين، كما كان هناك غناء الغجر والعوالم الذي يملأ المقاهي وعلب الليل. وكان هناك الغناء الشعبي الفولكلوري الذي لاشك أن أم كلثوم قد سمعته، أو شاركت فيه في طفولتها القريبة، وكان بكل صنف من هذا الغناء قواعده وأصوله وجمالياته، ولم يكن هناك نمط واحد من الغناء تجمع عليه الأمة بكل طبقاتها، ومستوياتها الثقافية المختلفة، صحيح أن الأمة بكاملها أجمعت على عشق ألحان سيد درويش لكن الهم الأساسي لسيد درويش كان حلمًا موسيقيًا. ولم يلتفت كثيرًا لحل هذه الأزمة الغنائية، فنحن

الآن حين نسمع ما تبقى من تسجيلات صوتية لألحان سيد درويش سيدهشنا هذا التباين الواضح بين مصرية الألحان والموسيقى وبين أسلوب غنائها الذي يتراوح ما بين غناء الغجر والعوالم في أصوات حياة صبري، ومنيرة المهدية. وما بين الغناء على طريقة الأتراك ، والمستتركين في أدوار سيد درويش العشرة».

كان في قلب المشهد الغنائي من الأصوات النسائية أسماء مثل.. توحيدة.. منيرة المهدية.. فتحية أحمد.. فاطمة قدري.. فاطمة سري.. وحياة صبري، والمنشدة الدينية سكينة حسن، وبين هؤلاء، وأم كلثوم بدأت الحرب، ولم تكن الأدوات متكافئة بين الطرفين، فأم كلثوم لم تكن تملك سوي جمال صوتها.. أما الأخريات فلهن الرصيد التاريخي، والخبرة في المكائد، والمعجبين، ولم تكن الحرب بين الطرفين لتكريس زعامة بدلا من أخرى، وخنق صوتًا غنائيًا على حساب آخر، أو دفن موهبة تنبت من أرض قاحلة.. وإنما هي الحرب التي تتكرر في التاريخ دائمًا، وهي حرب الانتقال من مرحلة بمعالمها الحضارية، والتاريخية إلى مرحلة أخرى جديدة. وما حدث مع أم كلثوم كان تعبيرًا عن ذلك، فهي وضعت أقدامها في التوقيت الفارق في التاريخ، توقيت لمرحلة شهدت ثورة ١٩١٩م بكل فورانها الشعبي، ورغم أن الثورة لم تحقق الاستقلال لكنها أسست لقيم وطنية ونهضوية جديدة يعبر عنها الناقد كمال النجمي: « أيقظت ثورة ١٩١٩م شخصية الشعب المصري، وأن أصداء تأثيرها، كتأثير الثورة العرابية، وحادثة دنشواي، ظلت تتردد في ربوع مصر على مدي سنوات، وفي مجال الثقافة التعبيرية أدت ثورة ١٩١٩م وكذلك الاتجاهات الاجتماعية التي ساعدت الثورة على تقويتها إلى تدعيم اعتزاز المصريين المتنامي بتراثهم الوطني».. ويضيف النجمي: «يتميز المصريون بطريقتهم في الغناء.. وهجر المطربون هذه الطريقة لمئات من السنين، وعاش الشعب يغني لنفسه بينما كان المطربون المحترفون يغنون للسلاطين والأمراء والمماليك، ثم للباشوات الأتراك..

فهمت أم كلثوم مقتضيات المرحلة الجديدة، وبدأت في التعاطي معها، وكان عام ١٩٢٦م هو نقطة التحول في مسيرتها الغنائية حيث أدخلت تطويرا جديدا على فرقتها الغنائية تمثل في إدخال آلات حديثة في التخت الذي يصاحبها ،وتتذكر ذلك قائلة:

«في أواخر عام ١٩٢٦م.. وكنت وقتها بالإسكندرية.. التقيت هناك بعازف العود المعروف مصطفى رضا.. وتحدثنا عن الفن.. واللون الذي أقدمه.. ثم تناول الحديث بيننا فكرة إدخال الآلات الحديثة في «التخت » الذي يصاحبني في الحفلات..وأبدي مصطفي استعداده للاشتراك مع الفرقة الموسيقية التي تصاحبنى..

وتحمس والدي للفكرة... واشترط في سياق الحديث أن يكون التطور إلى الأقوى والأحسن.. بحيث لا يكون تقليدًا لأي «تخت» آخر موجود في القاهرة..

وبصراحة.. كنت أفكر في تطوير «التخت» قبل لقاء مصطفى رضا.. كنت أفكر في ذلك.. قبل أن أجد نفسي في يوم من الأيام مرغمة على ذلك..

وقبل أن ينصرف «مصطفى رضا» كان قد اتفق مع والدي على أسماء أعضاء «التخت»، وهم إلى جانب مصطفى، محمد العقاد، وسامي الشوا، ومحمود رحمي، ومحمد القصبجي وآخرون، ولم يبخل والدي بشئ في سبيل التعاقد مع كل هؤلاء، لما يتمتعون به من مكانة فنية في ذلك الوقت، وقد استفدت كثيرًا من تكوين «التخت» على هذا النمط، فقد كان الشيخ محمود رحمي ،يدربني على عزف العود، وحفظ أكبر كمية من التواشيح لتكون بمثابة أرشيف، يساعدني في المستقبل وأجدت بالفعل العزف على العود، وفكرت يومها في تلحين الأغانى، وجربت حظي في تلحين قصيدة لأحمد رامي، بعنوان «يا نسيمَ البحر ريان الندى» ولأشبع رغبتي في التلحين أقدمت على التجربة مرة أخري في أغنية لرامي أيضًا بعنوان: «على عيني الهجر»، بعدها آمنت بالتخصص وفضلت الاقتصار على الغناء فقط وقد استفدت كثيرا من تذوقي للشعر،ومعرفة بحوره وأوزانه التي تعلمتها عن الشاعر

أحمد رامي وقراءاتي المتعددة لكتب ودواوين الشعراء..

هذا التجديد الذي بحثت عنه أم كلثوم كاستجابة للتحدي الحضاري الذي فرض نفسه.. زاد من حملات الغضب ضدها ممن رأوا أن استمرارها يحتوي على خطر محقق عليهم، وتأسيسًا على ذلك نظم هؤلاء حملات صحفية مغرضة ضدها، على أمل منهم أن تترك المطربة الجديدة القاهرة، وتعود إلى قريتها طماي الزهايرة، وتترك لهم الميدان كما كان من قبل.

تقول أم كلثوم عن هذا الجانب:

كان هدف هذه الحملات أن تبعث اليأس في نفسي.. وتقتل آمالي في المستقبل لأعود إلى «طماي».. وأترك لهم القاهرة ميدانًا رحبًا يرتعون فيه.. لقد تناولت هذه الحملات في البداية الأغاني التي أقدمها.. وأدعوا أنها لا تناسب جمهور القاهرة. وإنها تناسب رواد الليالي والموالد في الأرياف.. وبصراحة لم يؤثر هذه الأسلوب في إيماني بالله.. وبالمستقبل لأنني كنت أعرف طريقي الذى اخترته مع والدي وأخي واقتنعنا به.. وكانت باكورته أغنية من كلمات المرحوم علي الجارم ولحن أحمد صبري النجريدي..

«مالي فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة إلاك»

يومها أحسست بتجاوب الجمهور.. وانفعاله باللون الجديد.. وتوقعت أكثر من حملات الصحف والمجلات.. لذلك لم تكن تلك الحملات بالشئ غير المتوقع..

في هذا السياق يمكن فهم شراسة المعارك التي حيكت ضد أم كلثوم من المغنيات المحسوبات على المرحلة التي كانت الستائر توشك على الإسدال عليها لبدء مرحلة جديدة، تؤسس هوية للغناء وترصد الدكتورة نعمات أحمد فؤاد التي تصدت لكتابة سيرة أم كلثوم هذه المعارك قائلة:

كان الصراع الفني من (١٩٢٠ – ١٩٣٠م) صاخبا، ولم تكن أم كلثوم طرفا بارزا في هذا الصراع – على الأقل في أوله – فقد كانت صغيرة لا تلحظها العين،

فقد حدث في عام ١٩١٨م، أن أخذ جلساء فاطمة قدري التي كانت يؤمئذ مطربة ذائعة الصيت، يتحدثون عن فتاة مسكينة اسمها أم كلثوم، فتاة يقولون عنها: أنها تغني، وأن لها صوتا لا بأس به، ولكنها لا تغني كما يغني الناس، بل هي (توتد) للنبي عليه الصلاة والسلام، وتنشد الأناشيد في موالد الريف، وتلبس العقال.

وأخذ الحاضرون من الفلاحة الصغيرة مادة للتنذر والضحك والتسلية، مرة يطلقون النكات على اسمها، ومرة يتساءلون عن سر العقال.. ومرة يتساءلون عن الجبة التي تلبسها، وتزعم أنها (بالطو) وهل هي بنت أم ولد، وترتفع القهقهات مهما كانت النكتة سخيفة، وبينما هم يضجون بالضحك، طلعت عليهم مطربتهم، فاطمة قدري، فهبوا وقوفًا، وأدوا التحية. وبعد أن اطمأن بهم المجلس،استأنفوا الحديث، فتساءلت الست فاطمة من طرف أنفها من هي أم كلثوم هذه، فقصوا عليها قصتها من جديد، فارتسم على وجهها تعبير من تذكر شيئًا سمعت به قبلاً.

آه لقد سمعت بالبنت أم كلثوم، ولا مانع من أن أراها؛ وسرعان، ما تطوع (المطيباتية) بإحضارها لكي تحظى بمقابلة المطربة المشهورة فاطمة قدري. وحين جاءت (البنت أم كلثوم). دخلت تتعثر في خطواتها، فيها انكسار المساكين من أهل الريف، وفيها حياؤها، على الرغم من أنها كانت قد قطعت شوطًا في القرى والمحافظات، ولكن القاهرة وأهلها في أعين الريفيين شئ آخر – قربي – قالت: فاطمة قدري.

(قربت) أم كلثوم، تقدمت من ست الحسن والجمال، حائرة مرتبكة ليس لديها ما تقوله للست فاطمة قدري التي تعرف مصر كلها قدرها.

ثم انصرفت أم كلثوم، بعد أن أعطت المجلس مادة أغزر للسخرية والتفكه والضحك، أما هي فلعلها كانت تحلم باليوم الذي تصبح فيه مثل فاطمة قدري.

وتضيف نعمات أحمد فؤاد: كانت نعيمة المصرية من رأيها أن «منير المهدية» لا

يعلى عليها، وأن فتحية أحمد لا بأس بها على ألا تغني من أنفها، أما أم كلثوم فكانت تقول عنها: أنه لا يتوقع لها مستقبلاً، وتقول نعمات:

«كانت الفترة بين ١٩٢٦ – ١٩٣٠ تتميز بعملية تصفية للمطربات الكثيرات اللاتي ظهرن في العقد الثالث من القرن العشرين.. تصفية كانت نتيجتها أن انحصرت المقارنة واعجاب المعجبين بين ثلاث:

منيرة المهدية – فتحية أحمد – أم كلثوم.

أحست منيرة المهدية سلطانه الطرب أن عرش الغناء بدأ يهتز من تحتها، وصلت درجة قلقها وغيرتها إلى أنها إرتدت ملاءة لف سوداء. ووضعت على وجهها برقعا. وارتدت شبشبًا في قدمها حتى تبدو كبنات البلد، وصحبت معها الممثل محمد بهجت، وذهبت إلى مسرح رمسيس، حيث كانت تغني أم كلثوم، وإشترت تذكرتين في أعلى التياترو (وهي أرخص مقاعد المسرح، ولما شهدت قدرة أم كلثوم الغنائية وسيطرتها العجيبة على الجمهور، لم تستطع تحمل أكثر من وصلة واحدة، وانصرفت إلى عوامتها تفكر ماذا تفعل؟ حتى إهتدت إلى حيلة شيطانية وذلك بإيقاع ناقد صعيدي شاب اسمه محمد عبد المجيد حلمي صاحب مجلة المسرح، وكانت مجلة فنية شهيرة في غرامها، وبدأ في الحملات الصحفية ضد أم كلثوم وكانت الذروة في قوله « أن أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين مؤداها أن شابا من القرية اغتصبها، ووعد بنشر نص الحكم، ولم ينشره طبعًا ؛ لأنه كان كذبة كبيرة. لكن هذه القضية بالتحديد دعت والدها إلى التفكير جديًا في العودة إلى قريته وترك القاهرة الملعونة نهائيًا ورغم توسلاتها له إلا أنه رفض نهائيًا حتى بعثت العناية الإلهية بمن يعيد الأمور إلى نصابها ، تقول أم كلثوم:

«فجأة دق الباب.. وأسرع إليه الشيخ خالد يفتحه.. وكان القادم..أمين المهدي صديق العائلة ترافقه أسرته، جاء بعد أن سمع بإصرار أبي على مغادرة القاهرة،

ونظرت إلى أمين المهدي، وكأنه مبعوث العناية الإلهية الذي جاء ليخلصني ويقنع والدي بالبقاء في مصر.. التفت أمين المهدي إلى أبي، وقال موجها إليه الحديث.. «وأنت يا شيخ إبراهيم.. بيهمك الكلام الفارغ اللي مكتوب في مجلة المسرح، وعارف لما تسافر أنت وبنتك، يبقى معناه إيه ؟.. معناه إن الكلام صحيح.. كانت هذه الكلمات كافية لكي يعدل والدي عن رأيه، ولكن الحملات الصحفية لم تتوقف.. بل عقدوا مقارنة بيني وبين فتحية أحمد.. ثم بيني وبين منيرة المهدية وفتحية.. وكانت النتيجة أنني الثالثة، ولم أهتم بالنتيجة، وإنما صممت ألا أكون في الموقع الذي وضعوني فيه..كنت أسعى جاهدة؛ لأن يفرضني فني على صفحاتهم ولم أستعجل الأيام».

أين كان أستاذها ومكتشفها الشيخ أبو العلا محمد من كل هذا ؟

تجيب أم كلثوم.

في هذه الأيام كان «الشيخ أبو العلا» يلازمنا.. يحضر إلينا في لوكاندة «جوردن هاوس» كل ليلة.. يغني لي وأغني له.. حتى حفظت منه كل أغانيه وألحانه.. كان يرافقني في كل حفله أذهب إليها.. كان الشيخ أبو العلا.. في منزلة والدي.. لا تزال نصائحه حتى اليوم أعمل بها (قبل رحيلها).

وغاب الشيخ أبو العلا يومين على غير العادة.. وفي اليوم الثالث ذهبت إلى منزله أسأل عليه.. فوجدته مريضًا.. فعدت والدموع تبلل خدي.. وأخبرت والدي.. فرافقني أنا وأخي خالد لنقضي معه هذه الليلة مكثنا معه حتى نام.. كنا نذهب إليه كل يوم إلى أن أسترد صحته.

وفي الايام التي ثقل فيها لسانه.. كان يحرص أيضا على الحضور إلينا.. وكان يغني لي.. وعندما تغيب الكلمات منه.. أو يتعثر نطقها يقول لي: أنت عارفة أنا عايز أقول إيه.. فقد كنت أحفظ أغلب أغانيه..

إنني لا أنسى يوم أن قال لي : لن نفترق أبدًا يا «أم كلثوم»؛ لأنني أعتبرك ابنتي.. أنا مسئول عنك وعن نجاحك زي الشيخ إبراهيم بالضبط.

وفي ليلة مظلمة.. لم يطلع لها قمر.. جاءني نبأ وفاة الشيخ أبو العلا.. كان ليلة الأربعاء ٥ يناير ١٩٢٧م كنت في ذلك الوقت قد انتقلت إلى الزمالك (حي).. خرجت من الشقة هائمة على وجهي لا أدري ماذا أفعل؟ وكان يرافقني أخي خالد.. وسامي شوا.. كنت أريد أن أبكي.. ولكن الدموع لا تطاوعني. لقد تحجرت في عيني.. سرت على قدمي من الزمالك إلى شارع فؤاد.. ضاعت الطرق أمامي وفقدت كل تفكير.

كنت أسير من شارع إلى شارع.. كل شيء أمامي كان مظلمًا.. فقد مات الرجل.. الذي وقف بجانبي.. وقدم لي أكبر عون وأكبر مساعدة.

حسمت أم كلثوم معاركها مع الأخريات بالانتصار عليهن بالضربة القاضية، فهل يمكن القول أن المعطيات السابقة وحدها كانت السبب في هذا الانتصار الساحق؟ ولماذا تعلق بها البسطاء والفلاحون مبكرًا، ورأو فيها ما لم يروه في غيرها؟

ولماذا سجلت انتشارها بهذه السرعة في بداياتها؟ هل لذلك علاقة بمجريات الجوانب السياسية والاجتماعية في الفترة التى بدأت منها في طماى الزهايرة؟ ثم انتقالها إلى القاهرة؟ وهل كان لأن أم كلثوم فهمت مقتضيات المرحلة الجديدة في تاريخ مصر ؟

الكاتب والروائي الراحل فتحي غانم له رؤية خاصة تقدم إجابة عن مجمل هذه الأسئلة.

يقول: «لم تكن أم كلثوم في ذلك الوقت، في الفترة بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٨ وهي فترة ظهورها كمغنية في الريف، وقبل انتقالها إلى القاهرة، تغني كالمطربات الشهيرات في ذلك الوقت ولا تقلدهن، بل ربما لم تكن سمعت باسم منيرة المهدية

أو باسم الشيخ سلامة حجازي.

ولم يكن غناء المحترفين في مصر للناس العاديين، بل كان قاصرًا على طبقة الأمراء والأعيان الذين يقيمون الحفلات في بيوتهم، أو يترددن على صالات الرقص والبارات.

وفي ذلك الوقت، كان الفلاح المصري يعاني عذابًا لم يشهد له مثيلاً في حياته، كان الإنجليز يصادرون ما شيته ودوابه التي هي كل ثروته وحياته، ثم بدأ الإنجليز يسوقون آلاف الفلاحين مسخرين للحرب التي كانت بينهم وبين الأتراك في الشام، وأرسلوا حوالي عشرين ألفًا من الفلاحين المصريين إلى فرنسا عام ١٩١٦، بعد أن اكتشفوا قوتهم في العمل، وشدة مثابرتهم تحت ظروف الحرب القاسية، وأحست كل قرية في مصر بالضياع وفقدان الناس والمال، يحترقون في أتون حرب لا شأن لهم بها، وفي هذه الحالة النفسية المريرة، بدأ الفلاحون يعبرون عن مأساتهم – سواء المرتحلون خارج مصر، أو الباقون فيها – بأغان ليس لها صلة بغناء المحترفين في مصر.

يضيف غانم: كان المغني في مصر يثير الناس ويطربهم، بشيء اسمه « الهنك والرنك » وهي الميوعة والطراوة في الغناء، ابتكرها محمد عثمان منذ أيام الخديوي إسماعيل وحفلاته الباذخة، إذ يقضي المغني عشر ساعات متتالية وهو يتلاعب بصوته مرددًا جملة أو شطرًا من قصيدة.

وكانت منيرة المهدية تثير حواس المستمعين، ببحة في صوتها فيها طابع جنسي، يشبه بحة الأغاني التي يغنيها الأمريكيون اليوم في أغانيهم الراقصة.

أما أم كلثوم فقد غنت مع الفلاحين، على طبيعتها وسجيتها، غنت بلا قواعد وبلا هنك أو رنك وبلا بحة.. أو تلاعب.. أطلقت صوتها معبرا عما تحس به، بلا خضوع لتقاليد أو مزاج.. أطلقت صوتها وكأنها تغني لنفسها.. وإذا بالفلاحين

يطربون لسماعها ويجدون فيها تعبيرًا عن الانطلاق الذي يتمنونه في حياتهم.

وهنا يجب أن نسجل لأم كلثوم أنها استحقت منذ ذلك الوقت، التفضيل الذي حباها به الفلاحون على غيرها من الأصوات التي كانوا يسمعونها، وهذا التفضيل راجع لأمر شخصي في أم كلثوم، وحتى لو هيئت الظروف لأصوات جميلة أخرى أن تبرز، لما كان جمال الصوت وحده كافيًا، إذا خضع هذا الصوت الجميل لقواعد المحترفين في الغناء وتقاليدهم، بل كان لابدَّ أن ينطلق الصوت الجميل ثائرا من كل قيد.. حتى يتجاوب مع حالة المستمعين النفسية، وهذا هو ما فعلته أم كلثوم.. وحدها.

يضيف غانم :لقد إستجابت أم كلثوم في غنائها المنطلق إلى مشاعرها التي اتفقت مع مشاعر الفلاحين، ولكنها لم تتفق مع مشاعر هواة الطرب من الأعيان الأغنياء، وليس أدل على ذلك مما كتبه النقاد عندما ظهرت أم كلثوم لأول مرة في القاهرة.

كتبوا يصفون صوتها في الصحف.

«إنها ترسل الغناء إرسالاً بغير قطعة من قطع الطرب تمهد لها سبيل الانغام»!

قال ناقد آخر:

«زيادة على حسن الصوت ورخامته، يوجد شئ اسمه الفن، وأم كلثوم تسير مع طبيعتها فقط، وهذا لا يكفي في الواقع وليس فنًا ».

وقال ناقد ثالث :

«إن في صوتها جفافًا – يقصد لا ميوعة فيه – ولا يمر صوتها بالآذان، فما تكاد تنفرج شفتاها، وما يكاد الإنسان يحس أن النغمة تكون في مرورها بالأوتار حتى تنفلت من الأذن، ولكن يخفق بها القلب».

يقول غانم: جميع هؤلاء النقاد- ويؤسفني ألا أعرف أسماءهم إذ لم يوقعوا كلماتهم – كانوا يفضلون منيرة المهدية على أم كلثوم.

ومنيرة كانت تمثل الجنس الصارخ في الصوت، وفي معاني الأغاني. وكانت تسجيب لجمهور سهرات فيها خمر، وحشيش، وصيحات فيها عربدة وشهوة، ونكات جارحة مخجلة.

وكانت أم كلثوم – مغنية موالد الفلاحين – لها صوت طبيعي، ينطق الكلمات سليمة، بلا عوج أو التواء، وبعيد تمامًا عن الأصوات الجنسية فضلاً عن خلوه من صنعة التكلف في التلاعب بالصوت وترديد الكلمات، بصرف النظر عن معناها.

ومن الغريب أن تختار هذه الفلاحة المغنية هذه الطريقة في الغناء وتتمسك بها بتأييد من جماهير المستمعين الفقراء.

ولا تحاول أن تتعلم طرق الغناء الأخرى السائدة في ذلك العصر، متفقه في ذلك مع الشيخ سيد درويش وفي نفس الوقت- دون أن تلقاه أو تتعلم على يديه – وهو الموسيقى الذي كفر أيضًا بفن المحترفين، وبدأ ينادي بأن طبيعة المصريين في الغناء أقوى من فنهم، وبينما كان سيد درويش يجهد نفسه للتلحين بطريقة جديدة تخالف مألوف العصر، وتتفق مع المشاعر الثائرة الجديدة التي تجتاح الناس، كانت أم كلثوم تطبق أفكار سيد درويش فعلاً بغنائها الريفي بين الفلاحين.

ويقطع غانم بالقول: لا أريد أن أتهم بالمبالغة إذا قلت إن ألحان سيد درويش الثائرة على الصنعة القديمة، والمتأثرة بالطبيعة والسجية المصرية، وكذلك صوت أم كلثوم وطريقتها في الأداء الطبيعي، كانا يرمزان إلى رغبة حقيقة كامنة في النفوس للانطلاق والتجرد من القيود السياسية، والاقتصادية التي تضغط عليهم، ولما حقق لهم هذا الحلم- من ناحية الفن – سيد درويش في ألحانه، وحققت أم كلثوم في غنائها أقبلوا عليها في إعجاب.

و يضيف غانم :بدأ الأغنياء يسمعون عن أم كلثوم،وكانت الأنباء تتناقل إلى اليهم من خدمهم وأعوانهم بأن هناك فلاحه تغني بصوت ملائكي، وتحرك

الفضول في نفوس بعض هؤلاء الأعيان، فإستدعوا أم كلثوم إليهمَ ليتحققوا من صحة النبأ.

رسمي باشا محافظ دمياط، كان لا يجد في المدينة نوعًا من التسلية يتفق مع مركزه ومنصبه، وفي إحدى نوبات السأم استدعى أم كلثوم إليه واستمع إليها مع ضيوفه، فهزوا رؤوسهم في إعجاب، ولكنهم لم يجسروا على مقارنتها بمنيرة المهدية العظيمة.

وتعود أم كلثوم من مثل هذه الحفلات، بعد أن تأكل طبق مهلبية، أو تقضم قطعة لحم، بعيدًا عن المائدة التي تقام للمدعوين، فهي ليست أكثر من فلاحة لها صوت جميل.. وأين يجتمع مجلس الوزراء في عوامة لها راسية على شاطئ النيل.

وفي أثناء تردد أم كلثوم على بيوت أعيان الفلاحين، بدأت تسمع عن القاهرة، وحدثها توفيق بك زاهر من أعيان السنانية، عن توقعه لنجاحها لو ذهبت إلى القاهرة.

ويطرح غانم رؤية مغايرة حول الفضل في اكتشافها.. يقول: عندما يتحدث الكتاب عن أم كلثوم يؤكدون دائمًا أن توفيق بك زاهر اكتشف موهبتها، ونحن نعرف الآن أن هذه الرواية ليست حقيقية، إن الذين اكتشفوا أم كلثوم هم فلاحو القرى.. ومنهم الخفير الذي أعطاها عشرة قروش لتغني في فرحه، وبائع السجائر أحضرها لتغني في حفلة أقامها مقابل جنيه واحد، وأمثالها من بسطاء الناس، أما الأغنياء، فقد تسلموها من بين الناس يدفعهم الفضول أولاً.. ثم نوع من الحماس للشئ الجديد المثير.

ونجح وفيق بك زاهر في إقناع أم كلثوم بالسفر إلى القاهرة، واستطاع أن يضيفها في بيت آل عبد الرازق في شارع الدواوين.

وكانت فرقة للكشافة النوبية تقيم حفلاً في مقرها بجوار البيت، فأرسلوا أم كلثوم لتغني فيه.

وبدأت أم كلثوم تغني قصيدة وقورة، وغريبة عن جمهور حفلات القاهرة، وما كاد صوتها يرتفع بمطلع القصيدة.

مولاي كتبت رحمة الناس عليك.. فضلاً وكرمًا

حتى ارتفع أحد السامعين صائحًا:

- كتب الغلب علينا يا أختي.

وضج الناس بالضحك.وبكت أم كلثوم

ولو قدر لي أن أكون ناقدًا فنيًا شهد ظهور أم كلثوم لأول مرة في حفلة غنائية عامة في مدينة القاهرة لكتبت في ذلك الوقت النقد التالي لأم كلثوم:

«ظهرت بالأمس مغنية جديدة تدعى أم كلثوم.. أقبل على سماعها جمهور كبير أغلبه من السوريين والأفرنج، وبعض الشبان من أهل القلم والثقافة، وقد وقفت أم كلثوم على خشبة المسرح في ملابس صبي عربي.. البالطو والكوفية والعقال، ومن حولها بطانة من المشايخ وصفهم أحد الأفندية بجواري بأنهم كالأصنام الجامدة، وقد علمت أن هؤلاء المشايخ خالد والد الفتاة الشيخ إبراهيم وأخوها الشيخ خالد وقريب لها اسمه الشيخ صابر، ويدور الهمس بأن هذا الشيخ الأخير طيب أم كلثوم، ولكن أحدًا لم يؤيد هذه الإشاعة بعد.

واستطاعت هذه الفتاة العجيبة أن تغني بغير آلات تخت بصوت واضح جميل قوي، ويبدو أنها تأثرت كثيرًا بتلاوة القرآن الكريم الذي حفظته في الكتاب في قريتها، وهي لا تجيد صنعة الأنغام والتلاعب بها، ولا تعتمد على شيء غير صوتها وصوت بطانتها، وهو مزعج ونشاز، ولا يقارن بصوت أم كلثوم، ويخيل لي أنها لن تستمر في الغناء بصحبة هذه البطانة، وإلا حكم عليها بالفشل، وأسعدني أن أعلم أنها بدأت تعلم العود لتغني هي وتعزف عليه، وربما كان هذا خيرًا لها وللسامعين.

وأجمع أغلب السامعين على سوء اختيار المغنية لأغنيات بعيدة عن ذوقهم،

فقصائدها بعيدة عن الرقة. مليئة بالوقار، وقد غنت بالأمس قصيدة.

مولاي كتبت رحمة الناس عليك.. فضلاً وكرامًا

فسخر منها أحد المستمعين وصاح :

- كتب الغلب علينا يا أختي

ومع ذلك استمرت المغنية الصغيرة في الغناء والذي لا يعلمه الحاضرون أنها ما كاد تنتهي من القصيدة حتى أسرعت إلى حضن والدها الشيخ إبراهيم، وأجهشت بالبكاء.

وعلى أية حال خرج الكثيرون من الحفل، وهم لا يخفون إعجابهم بصوت أم كلثوم، وسمعت أكثر من شاب مثقف يقسم في تهور واندفاع بأن سيكون لهذه الفتاة شأن في عالم الطرب.. وأن طريقتها في الغناء خير من أسلوب الغناء عند منيرة المهدية ».

ويضيف غانم :«تلاحظ على هذا النقد – وقد جمعت ما فيه من معلومات وأخبار من صحف، ومجلات ذلك العصر – كأنه يشير إلى جمهور جديد لأم كلثوم غير الجمهور الذي اعتادته هي بين قرى الفلاحين وغير الجمهور الذي اعتاد أن يسمع الطرب، والغناء في القاهرة إنه جمهور السوريين والإفرنج، ثم الشباب المثقف من أولاد الأعيان، وأثرياء الزراعيين في الريف، وهو في حقيقته جمهور الطبقة المتوسطة في المدينة وهي الطبقة التي بدأت تنمو وتتسع مصالحها في مصر».

ويرصد فتحي غانم كيف تولدت العلاقة بين صوت أم كلثوم منذ بدايتها والطبقة الوسطى التي بدأت في نموها، يقول:

«في خلال الحرب العظمى وبعدها، نزح كثير من أبناء الفلاحين إلى القاهرة ليتعلموا ويتحولوا إلى موظفين يقبضون المرتبات الشهرية من الحكومة، كذلك إزدهرت التجارة التي كان يسيطر عليها الأوروبيون، وبعض أبناء الشام».

و يضيف :«هذه الطبقة كانت تعمل سواء في دواوين الحكومة، أو في أعمال التجارة، ولم يكن لديها متسع من الوقت كي تسهر الليل كله في الحفلات والليالي الملاح، مثل الأعيان في سهراتهم في البيوت، أو في الصالات والبارات، بل كان هؤلاء الموظفين والتجار لهم يوم أجازة يستطيعون فيه أن يستمعوا إلى الغناء ولاشك أنهم رحبوا بغناء أم كلثوم السريع – بالنسبة لغناء الآخرين في ذلك الوقت – فضلاً عن اهتمامها بالمعاني التي تؤديها بصوتها، وهو ما يتفق مع مستوى عقلية هذه الطبقة».

وبعد أن يشير غانم الى أن الطبقة المتوسطة هي التي زاملت أم كلثوم في صعودها الفني، يقول: « منذ جاءت أم كلثوم إلى القاهرة، ابتعدت نهائيًا عن طبقة الفلاحين الأجراء إلا في أغانيها ذات المعاني القومية أو الاشتراكية التي تمس مصالح هؤلاء».

ويضيف غانم ، إذا أردنا أن نفهم طابع أم كلثوم الفني منذ أن انضمت إلى الطبقة المتوسطة برحلتها من الريف إلى المدينة، فلابد لنا من دراسة الطبقة المتوسطة التي عاشت فيها أم كلثوم وغنت لها.

وأهم ما يميز الطبقة المتوسطة هي أنها تقوم على أساس مبدأ البحث عن الربح.

والطبقة المتوسطة تتكون من أفراد يعيش أغلبهم في المدن، ويبحثون عن الثروة المادية عن طريق التجارة أو إمتلاك الدكاكين أو المصانع الصغيرة أو الكبيرة أو من احتراف المهن المختلفة كالمحاماة والطب والهندسة، أو من الالتحاق بالوظائف الحكومية.

وأفراد الطبقة المتوسطة يكتسبون كل صفاتهم من السوق، أي: أن المصلحة المادية هي التي تحرك مشاعرهم وانفعالاتهم وعواطفهم وأفكارهم، فهم يثورون وينقلبون إلى وطنيين؛ لأن مصلحتهم المادية تقتضي أن يثوروا وأن يصبحوا وطنيين، وقد يتراجعون في ثورتهم إذا ما وجدوا أنهم سيصابون بأزمات مالية لا يطيقونها،

فإذا ما استقرت أحوالهم حصنوا أنفسهم بالوقار المكتسب، فتحدثوا عن مثاليات الشرف والفضيلة والعفة والتدين.

والفائز في الطبقة المتوسطة، هو من يجمع مالاً أكثر من غيره، لذلك تهتم الطبقة المتوسطة بالحديث عن الشخصيات ومقدار ما تكتسب من مال، أكثر من حديثها عن القيم التي يعيش من أجلها الإنسان. فمثلاً ليس هناك حديث في هذه الطبقة عن الفن بقدر الحديث عن شخصيات الفن وقدرتها على إكتساب المال من فنها. وليس هناك حديث عن الموسيقى والغناء في ذاتهما، بل الحديث عن منيرة المهدية وكم كسبت، وأم كلثوم وكم تكسب.

ولذلك لم يعن أحد بدراسة تطور الموسيقى عندنا، وحصرنا حديثنا عن الموسيقى، في تتبع الشخصيات الفنية التي ظهرت متتالية في هذا المجال الفني.

وبعد أن بدأت أم كلثوم الغناء في القاهرة بسنوات قليلة، جذبت أنظار النقاد إليها فلم يلاحظوا فنها، ولم يدرسوا خطواتها الجديدة في الفن، بل اقتصروا على مناقشة واحدة، وهي : هل تصلح أم كلثوم كخليفة لمنيرة المهدية أم لا ؟

يضيف غانم :«كان حديث الصحف يدور حول هذه المناقشة، فتقرأ مثل هذه القصة »كنا جلوسًا، فطلع علينا نذير يهتف، لقد ماتت منيرة المهدية، بغتنا جميعًا وكان أحدنا يشرب السحلب، فاندفق عليه ومرت برهة قصيرة ترحمنا فيها على السيدة منيرة وذكرنا صوتها الجميل وجهادها في المسرح ثم انتقلنا فجأة إلى الحديث عمن يخلفها، فتحية أحمد، فاطمة قدري، أم كلثوم، نعيمة المصرية، وقام جدال عنيف، ونسى الجميع منيرة، ثم بعد ساعات علمنا أن منيرة المهدية لاتزال على قيد الحياة، وفي الحال نسينا فتحية وفاطمة وأم كلثوم، وعدنا نتحدث عن منيرة المهدية ».

هذه هي الطبقة المتوسطة وهؤلاء هم نقادها الذين استقبلوا أم كلثوم في القاهرة.

وقد انتصرت الطبقة المتوسطة بعد ثورة عام ١٩١٩م عندما أجبرت الملك على

إعلان الدستور، وتثبيت حق هذه الطبقة- من المثقفين أولاد البورجوازية الزراعية - في تولي الحكم، وزادت الطبقة المتوسطة مع انتشار التعليم وحلول المصريين مكان الأجانب في الوظائف. ومع نمو هذه الطبقة المتوسطة كان فن أم كلثوم ينمو ويزداد وينتشر، يضيف غانم: ويلاحظ القارئ أني أربط الفن بشخصية أم كلثوم، فهكذا تشاء تقاليد الطبقة المتوسطة التي جعلت الغناء والطرب وأم كلثوم قمة واحدة وشيئا واحد.

وأصبح فن أم كلثوم وشخصيتها يعكسان معًا رغبات ومثل الطبقة المتوسطة.

فليس عبثًا أن ينفق المذيع وقته في وصف فستان السهرة الجديد الذي تلبسه أم كلثوم ولون منديلها الذي تمسك به أثناء الغناء، كما تتحدث الصحف عن الفراء الثمين الذي تتدثر به، فكل هذه المظاهر مهمة وضرورية في تأكيد مركز الفنان في الطبقة المتوسطة، وبغير الملابس الفاخرة اللائقة، والمجوهرات الثمينة، والمسكن الفخم، والسيارة التي من أحدث طراز، يعتبر الفنان أو الفنانة في أعين الناس في مركز متواضع، وليس جديرًا بالاهتمام.

ومنذ أن بكت أم كلثوم من سخرية أحد المستمعين في حفلتها الأولى في القاهرة، تعلمت درسها الأول عن المجتمع الجديد الذي كانت على وشك الدخول فيه، إنه مجتمع كسب المال وانتهاز الفرصة، والمهارة والشطارة، وسيطرة الفرد، وأنانيته فيكفي أن تجول فكرة عابرة بخاطر أحد المستمعين، حتى يطلقها غير عابئ بشيء، فقد دفع ثمن تذكرته وما دام قد دفع الثمن، فهو حر فيما يفعله، وسيد لنفسه. هذا هو منطق المتفرج. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح أيضًا منطق الفنانة التي جاءت من الريف.

فما دام صوتها جميلاً والناس تعجب به، وتدفع المال من أجل سماعه، فهي حرة وسيدة لنفسها في عالم الغناء. والجمهور يتبعها ويستسلم إلى تصرفاتها في الألحان

كيفما تشاء بنفس الطريق التي كان الجمهور يتبع بها زعماءه السياسيين.

وسيطرت أم كلثوم على سامعيها، فأعلنوا ثقتهم بها ووضعوها على قمة فن الغناء والطرب بغير منازع .

يضيف فتحي غانم :

كان أساس العلاقة بين أم كلثوم وجمهورها، شيئًا يشبه الصفقة.

فأم كلثوم عليها – من ناحية – أن تغني بصوتها الجميل، الأغاني المختلفة بحسب المناسبات، الوطنية والدينية أو العاطفية، تبعًا لمزاج الجمهور وحالته النفسية.. والجمهور عليه – من ناحية أخرى – أن يدفع الحب والمال الذي تطلبه أم كلثوم.

وبهذه الصفقة أصبحت أم كلثوم نفسها، واحدة من أبرز أفراد الطبقة المتوسطة.

وهي على علم أن جمهورها يهتم قبل كل شيء بشخصيتها هي، ممثلاً في صوتها، قبل أن يهتم بكلماتها أو بألحانها، ولذلك فرضت أم كلثوم صوتها على اللحن كما كان لها الحق الأول والأخير في اختيار الكلمات التي تغنيها، وتعديلها مهما كان الشاعر الذي يؤلف أغانيها، شوقي، أو رامي، أو بيرم التونسي.

وهذا هو تفسير اهتمامي بالمغنية في دراسة الموسيقى في هذه الفترة من حياتنا الفنية، فقد خضعت لها الألحان والكلمات.. كما لا نعدو الحقيقة، إذا قلنا: إنها شاركت في تلحين وتأليف أغانيها، بما أحدثته فيها من تغييرات مختلفة.

وليس أدل على ذلك، من سماعك لأم كلثوم وهي تغني اللحن الواحد، فتطيل فيه لمدة ساعتين إذا أرادت وتختصره لربع ساعة إذا أرادت، فصوتها أهم عندها، وعند المستمعين إليها أيضًا من اللحن ذاته، وما يكاد صوتها يرتفع بالغناء حتى تخفت الآلات الموسيقية.

لذلك نشهد في غناء أم كلثوم، معركة فذة بين الصوت من ناحية والموسيقى من ناحية أخرى. وربما كانت هذه المعركة غريبة عند من يفهم الموسيقى على نحو ما

يفهمه الغربيون مثلا. فاللحن الذي يكتبه موسيقى غربي، يجب أن تحترمه المغنية، مهما كان الموسيقي عظيما كـ « بيتهوفن » أو « شوبرت » أو تافها مثل مؤلفي موسيقى الجاز.

والموسيقى يكتب لحنه فتعزفه الآلات بدقه، وتتبعه المغنية في خضوع تام، فصوتها لا يعدو أن يكون آله صوتية من بين آلات الفرقة الموسيقية.. أو إذا كانت المغنية موهوبة، فهي مثل الممثل المسرحي الذي يؤدي الدور الذي كتبه المؤلف، دون أن يتكلم بأفكار وكلمات من عنده.. فللموسيقى السيادة ؛ لأنها الأصل. وقد يغني اللحن الواحد عشرات المغنين فلا يميز الواحد عن الآخر. إلا إخلاصه في أداء اللحن الذي وضعه الموسيقى.

أما أم كلثوم، فقد تعجبها ، أو تعجب الجمهور جملة من اللحن، فتظل ترددها لفترة طويلة لمجرد اللذة التي يشعر بها السامعون من الصوت الجميل، وهو يؤدي هذه الجملة بالذات.

وهذا يعني كما يقول غانم: أن الإنطلاق والحرية اللذين بدأت بهما أم كلثوم في غنائها بين الفلاحين، أصبح إنطلاقًا يعبر عن نزعة فردية، مقياسها هو الشعور باللذة والنغم الجميل يعبر عنه الصوت الجميل.

وبعد أن كانت أم كلثوم نفسها تمثل الطبيعة الجديدة للشعب المصري، وكان النقاد القدامى يهاجمون حلو غنائها من الصنعة أدخلت أم كلثوم الصنعة على غنائها، فقطعت الألحان التي تغنيها وخرجت عنها لتتلاعب بصوتها حسب مزاجها بعيدًا عن اللحن المرسوم الذي وضعه الموسيقى.

وهذه الظاهرة ملموسة في فنون الطبقة المتوسطة، والتي يعبرون عنها بـ« الفن من أجل الفن »، أو بـ « الفن من أجل اللذة أو الجمال ».

واللوم- فيما حدث- لا يقع على أم كلثوم، فهي مغنية ذات صوت جميل، وإنما

يقع اللوم على العقول المفكرة التي زاملتها في رحلتها الفنية، وهي عقول رجال سياسية، ورجال اقتصاد، وأدب، وصحافة.

وكان تشجيع هؤلاء جميعًا، ونقدهم وتقديرهم لأم كلثوم، لا يمثل في غير إعجابهم بالصوت الجميل والربح الوفير الذي يمكن أن تحصل عليه، ولا شئ أكثر من هذا..فكانوا بذلك مثالاً واضحًا لعقلية الطبقة المتوسطة التي لا تفكر إلا في المال، وتكيف معتقداتها ومشاعرها بمقدار ما تحصل عليه من ثروة، ولا أعرف أحدًا من أصدقاء أم كلثوم دفعها إلى مغامرة فنية، والفنانون بطبيعتهم يحبون المغامرة ولو ضحوا بالمال من أجلها، ولاشك أن أم كلثوم كانت لتتردد في الإرتقاء بفنها لو وجدت من ينصحها بذلك، حتى لو كان ذلك على حساب ما تكسب من مال.. ولكن ما حدث هو إحجام أم كلثوم عن المغامرة غير المضمونة فلم تواصل الفن المسرحي الذي إزدهر في مصر، وأقبل عليه الشيخ سيد درويش، ومنيرة المهدية نفسها، وإن كانت اضطرت إليه بعد تحديد ساعات السهر في الصالات بأمر السلطة العسكرية الإنجليزية مما جعلها تلجأ إلى السهر في المسرح.. وكان مفترضا في أم كلثوم أن تبدأ عهد الأوبرا في مصر، وهي قادرة – لاشك في ذلك- على أن تخلقه وتوجده، ولكن أحدًا لم يكن يهتم بتطور الموسيقى وفن الغناء، بل تركز الاهتمام في شخص أم كلثوم واقترن الغناء بالمغنية واستطاعت وبصرف النظر عن لون الغناء، كما استطاع الزعماء الوصول إلى الحكم بأسمائهم بصرف النظر عن المبدأ السياسي.

وهكذا وقف التطور حتى دخلت مرحلة جديدة، هي مرحلة ثورة ٢٣ يوليو، وهي المرحلة التي ارتفعت فيها أم كلثوم إلى ظاهرة قومية للأمة العربية.

رؤية فتحي غانم التي فضلت أن أذكرها كاملة لأهميتها ، هي رؤية لاتسحب من رصيد أم كلثوم الذي تكون تدريجيًا منذ قدومها إلى القاهرة، ويمكن تلخيص

هذه الرؤية في أن الارتقاء الحقيقي للفن والموسيقى والغناء يأتي من جماعيته، وليس فرديته، لكن أم كلثوم اختارت أسلوب الأغنية ذات الطابع القردي ، ورغم هذا لم يخلو هذا الأسلوب من ميزة يراها كمال النجمي في:« أنه حمل سمة الطابع القومي المشترك في طريقة الغناء»، وترد أم كلثوم على ما ذكره فتحي غانم، وينقله هو أيضًا بقولها متساءلة:

– «هل أنا مسئولة حقا عن اختفاء الغناء المسرحي في مصر ؟

هل صحيح أننا عرفنا الأوبرا والأوبريت في أيام الشيخ سلامة حجازي ومنيرة المهدية ثم جئت أنا فأبطلت هذا الفن المسرحي ولم أستمر فيه ؟»

وتجيب: «إن لي رأيا فيما كان عليه الغناء المسرحي في مصر، إنه لم يكن أوبرا ولا أوبريت لا غناء مسرحيًا بالمعنى المفهوم، كان مجرد أغان فوق المسرح لا تنسجم مع القصة المسرحية، بل هي تقطع سياق القصة، وتقف المغنية أو المغني ليؤديا دورهما، فتصبح الأغنية في جانب، والموسيقى في جانب، والقصة نفسها في جانب ثالث، ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة- الأغنية والقصة والموسيقى – أية صلة غير إجتماعها بالمصادفة في مكان واحد فوق خشبة المسرح».

و تضيف :«لم أرض عن هذا الأسلوب في الغناء، فإما أن تكون لدينا أوبرا وأوبريت بطريقة فنية سليمة، أو امتنع عن الظهور على المسرح، إن وجدت يجب ألا تكون تقليدا للأوبرا الأجنبية».

وتقول :«إن الموسيقى يجب أن تعبر عن روحنا الشرقية ولا يمكن أن نفرض على جمهور المستمعين ذوقا والأسلوب الأوروبي، فذلك لأن جمهور الصور واللوحات الفنية محدود ومحصور في طبقة ضيقة من المثقفين، أما الموسيقى والغناء فجمهورهما هو الشعب كله على اختلاف طبقاته وثقافاته وأعماره.

إن الذي يدرس الموسيقى الأوروبية كالذي يدرس لغة أجنبية يجب أن يستفيد

منها.. ولكن من المضحك أن يطالب بأن تكون هذه اللغة الأوروبية هي لغتنا.

ولقد استمعت إلى الموسيقى الأوروبية وشاهدت الأوبرا الأفرنجية فلم أهتز لها، ولم أحس بصدى لها في نفسي كمصرية شرقية، وأعتقد أن هذا هو شعور الآخرين، فالذين يترددون على دار الأوبرا يهتمون باستعراض الملابس والأزياء والظهور في المجتمعات، أكثر من اهتمامهم الحقيقي بالموسيقى والغناء، وأنا لا أحب هذا التظاهر الذي يعكس مركب النقص وعدم إحساسنا بشخصيتنا العربية».

وتضيف أم كلثوم: «يعجبني الهنود الصينيون، لأنهم يحتفظون بشخصيتهم في موسيقاهم، فعندما شاهدت الأوبرا الصينية استمعت إلى موسيقى وغناء لا يمكن أن يصدر إلا عن الصينيين ويعبر عن حياتهم ومشاعرهم وكذلك الموسيقى الهندية تعتمد على آلات خاصة بها، ولا تحاول تقليد أحد، وهذا هو سبب نجاح الموسيقى الهندية والأوبرا الصينية في العالم كله.. إن كل بلد يجب أن يضيف إلى الموسيقى شيئا من عنده لا أن يقلد غيره .

وأخشى أن يكون المجددون للموسيقى الشرقية يقعون في خطأ التقليد، أو الاقتباس للموسيقى الأوروبية، وأنا أفضل الاستماع إلى السيمفونيات الأجنبية من أصحابها الأجانب بدلا من تقليدها، وحتى الموسيقى الراقصة أفضل الاستماع إليها من مصادرها الأجنبية، ولا أوافق على تقليدها في مصر وتقديمها للجمهور على أنها موسيقى مصرية تعبر عن شخصيتها المصرية».

وتضيف أم كلثوم :نحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشرقية أن نقدم أوبرا صادرة من تراثنا وحياتنا وتبهر العالم كله، وفكرتي عن هذه الأوبرا تلخص في النقاط التالية:

- الاعتماد على التراث الموسيقي القديم، ولا أقصد به الألحان القديمة بذاتها إنما نستلهم روحه ونربطها بواقع حياتنا.. وهو يجمع بين الموسيقى والغناء والرقص

في الأندلس وفي أيام العباسيين، وإخراج تابوهات تستمد أصولها من هذا التراث وتؤلف لها قصة مناسبة.

- إعداد أصوات مختلفة لتشترك في الغناء وإعداد كورس غنائي مدرب.
- المحافظة على الآلات الشرقية والمقامات الموجودة في الموسيقى الشرقية، ولا توجد في الغربية، وأن نضع آلاتنا الموسيقية في مصر، لأن الآلات النحاسية والخشبية التي تصنع في الخارج لا تستطيع أن تؤدي ربع المقام.

لو تحققت هذه الظروف كلها، فسترى مولد الأوبرا المصرية كفن حقيقي.

أما قصة المال الذي رأى فتحي غانم أنها حصلت عليه بشخصها بصرف النظر عن لون الغناء فترد عليه قائلة:

أما كلامك عن المال فأقول: إني غامرت بالمال في سبيل فني، غامرت بالمال يوم قررت أن أغني المعاني الدينية والوطنية، لقد نصحني الكثيرون بأن أعدل عن هذا النوع من الغناء، وكانوا يظنون أن الجمهور لا يهتم إلا بالأغاني العاطفية أو الخفيفة، ولكني صممت على تقديم أشعار شوقي وفيها « ريم على القاع بين البان والعلم » وفيها « الاشتراكيون أنت إمامهم » وهي معان وألفاظ بعيدة تماما عن معاني « تعاليلي يا بطة » و« تعالي يا شاطر نروح القناطر».. إن ما قدمت لجمهوري كان يحمل قيمًا دينية ووطنية، وكان من الممكن ألا أنجح في إقناع الجمهور بأن يسمع لمثل هذه الأغاني، ولكني نجحت في ذلك، وهذا هو أعظم إنتصار لي، وكم كنت سعيدة في إحدى الليالي وأنا خارجة من مطعم في الشاطبي، فسمعت وأنا أركب عربتي صوتا يغني « ابا الزهراء » وكان الصوت صادرا من كبارية على الكورنيش، وأحسست أن وصول هذه المعاني إلى ذلك المكان، وإنتشارها على هذا النحو، دليل على إرتقاء الغناء في مصر، فما كان أحد يتصور منذ زمن قريب أن تنتشر بين الناس غير الأغاني الخليعة المبتذلة.

ويفتح تعليق أم كلثوم علي ما ذكره فتحي غانم الحديث عن تطور سماتها الغنائية

منذ تجولها في قري ومراكز وجه بحري حتى مجيئها إلى القاهرة ، فمع نهايات عصر السلطان حسين كامل كان تجولها في القرى لإحياء الموالد، والأفراح بغناء ديني سائد وقتئذ ، ثم السلطان فالملك فؤاد الأول (١٩١٧ - ١٩٣٧م) ومعه يمكن القول أنها عاشت ولسنوات في مرحلة البحث عن مشروعها الغنائي الذي سيؤسس شخصيتها الفنية فيما بعد.

ويعتبر المؤرخون أن عهد الملك فؤاد الأول كان تتويجا لتطور طويل للفنون الحديثة في مصر بدأ في عصر إسماعيل، واختفي معه هذا اللون من الفنون البدائية الذي عرفته مصر من قبل مثل خيال الظل والأراجوز، والمقصود بالتتويج هنا أن تلك الفنون خلت في بنية الثقافة المصرية بعد أن ظلت غائبة عنها لوقت طويل وتأسس في هذه المرحلة نادي الموسيقى الشرقي، وعاد يوسف وهبى عام ١٩٢٣م من بعثته في دراسة المسرح في إيطاليا، وقدم في عام ونصف بعد عودته ٣٥ قصة مسرحية، وأصبحت كما قال الكاتب محمد التابعي: « مهنة التمثيل من المهن التي لا يأنف منها الشبان المتعلمون كما كان الحال من قبل » وفي عام ١٩٢٧م دخلت صناعة السينما مصر، ففي القاهرة أسست السيدة عزيزة أمير شركة « إيزيس فيلم.. وأعدت سيناريو باسم نداء الله، أدخلت عليه بعض تعديلات فيما بعد، وأطلقت عليه اسم « ليلي » وفي الإسكندرية أسس الشقيقان إبراهيم وبدر لاما شركة « كوندور فيلم » وأعد سيناريو باسم « قبلة في الظلام » وكان أول السيناريوهات التي اشتغلا بإخراجها »، وفي ٣ نوفمبر عام ١٩٣٠م تم افتتاح معهد فن التمثيل الجديد ليستقبل في شهر أكتوبر من العام التالي أول دفعة دراسية وعددها ٣٠ كان من بينهم رفيعة الشال وروحية خالد، وزوزو حمدي الحكيم، وعبد السلام النابلسي، ومحمد عبد القدوس.

وفي ٣١ مايو عام ١٩٣٤م بدأ البث الإذاعي للإذاعة الحكومية، وكان ضمن

فقرات الافتتاح فاصل موسيقي للآنسة أم كلثوم « أبدعت فيه ما شاء لها صوتها الساحر وفنها الممتاز ».

في هذا السياق كان مشروع أم كلثوم الغنائي يتأسس بدءا من الشيخ أبو العلا، ثم الدكتور أحمد صبري التجريدي، وجاء القصبجي لتغني له من كلمات أحمد رامي عام ١٩٢٤ م:

إن حالي في هواها عجب

أي عجب

ليس يرضيني رضاها

ثم يشقيني الغضب

وبعد هذا اللحن جاء لحن « أن كنت أسامح، وأنسى الأسية » وكان ثورة في عالم التلحين تجاوز كل ما قدمته أم كلثوم من قبل للقصبجي أو لغيره.

وفي معنى الوطنية السائدة حينئذ لم تغرد أم كلثوم خارج السرب، فهي ككل المصريين رأت في سعد زغلول زعيم الأمة ورمزها وفي ليلة ٢٧ أغسطس عام ١٩٢٧ م كانت تغني في كازينو البسفور بالقاهرة، وفوجئت أثناء غنائها بأن جميع المتفرجين يهرولون إلى خارج المسرح حتى وجدت نفسها تغني لفرقتها، فتوقفت عن الغناء لتسأل عن سبب هروب الجمهور، فقيل لها: أن الزعيم سعد زغلول وافته المنية في تلك الليلة، فإمتنعت منذ تلك الليلة عن الغناء لفترة من الوقت حدادًا على زعيم الأمة، وعندما عادت مرة أخرى كانت عودتها بقصيدة « إن يغب عن مصر سعد » التي نظمها أحمد رامي ولحنها محمد القصبجي من مقام النهاوند، ويقول مطلعها :

إن يغب عن مصر سعد

فهو بالذكرى مقيم

ينصب الماء ويبقى

بعده النبت الكريم
خلدوه في الأماني
وأذكروه في الولاء
أندبوه في الأغاني
أعذب الشكوى البكاء

وبيع من الأسطوانة التي حملت هذه القصيدة عدد جعلها تحتل المركز الثاني في توزيع اسطواناتها في ذلك العهد، بعد أسطوانه أغنية « إن كنت أسامح وأنسى الأسية ».

واظبت أم كلثوم بعد ذلك ولمدة طويلة على أن تفتح غناها في كل حفلة بهذه القصيدة. وهو ما يعد امتزاجًا حقيقيًا مع الحالة الوطنية التي كانت تجيش في نفوس وقلوب المصريين، وعلى كل الأحوال لم تقترن هذه المرحلة في حياة أم كلثوم بمقاربة الحاكم ،فالملك فؤاد لم يكن يتحدث العربية، وإنما كان يتكلم الإيطالية والتركية ولم تكن أم كلثوم ضمن جوقة مطربين يسمع إليهم بصفة خاصة، بل كانت واحدة ضمن عشرات الفنانين الذين يحتشدون أحيانًا في ركابه في بعض عواصم المحافظات لتقديم الحفلات الغنائية كما حدث في مدينة المنيا عام ١٩٣٠م ولا يوجد ما يشير إلى أنه كان « سميعًا » عاشقًا للغناء، أو له مطرب مفضلا، وذلك على العكس تمامًا من والده الخديوي إسماعيل الذي عرف عنه عشقه للفن ولصوت عبده الحامولي والمظ، ورعايته الخاصة للحامولي.

هكذا بدأت أم كلثوم..وظلت تفتخر بتاريخها الطالع من المعاناة التى أعطتها فهمًا خالصًا للحياة والوطن والدور، وكلما رأت الفرصة مواتية للتعبير عن انحيازها تفعل.. وتبحث في الكلمات عما يطابق الزمن.. وبالتالي يمكن القول: أن بحثها عن أبطال مثل الذين عاشوا حصار الفالوجا وتحدثت عنهم كما جاء سابقا.. كان طبيعيًا وتلقائيًا قدر تلقائيتها الشخصية كما هو واضح في حديثها عن ذكرياتها.